كقوله تعالى: ﴿اتقوا يوماً لا تجزي نفس﴾[1].

فإنْ قلتَ[2]: ما معنى قوله: **﴿ينفع الصادقين صدقهم﴾** إن أريد صدقهم في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه، لأنّه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟ **قلتُ**: معناه الصدق المستمرّ بالصادقين في دنياهم وآخرتهم، وعن قتادة: متكلمان تكلما يوم القيامة أمّا إبليس فقال: إنّ الله وعدكم وعد الحق، فصدق يومئذٍ وكان قبل ذلك كاذباً فلم ينفعه صدقه وأما عيسى عليه السلام فكان صادقاً في الحياة وبعد الممات فنفعه صدقه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

فإنْ قلتَ: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم فهلا غلب العقلاء فقيل: ومن فيهنّ؟ **قلتُ**: ما يتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً ألا تراك تقول إذا رأيت شبحاً من بعيد ما هو قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره؟ فكان أولى بإرادة العموم. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنعام مكية

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾.

جعل: يتعدّى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى: أحدث وأنشأ، كقوله: **﴿وجعل الظلمات والنور﴾** وإلى مفعولين إذا كان بمعنى: صير، كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً﴾[3]، والفرق بين الخلق والجعل، أنّ الخلق فيه معنى التقدير[4]، وفي الجعل معنى التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو نقله من مكان إلى مكان. ومن ذلك: ﴿وجعل منها زوجها﴾[5] **﴿وجعل الظلمات والنور﴾**؛ لأنّ الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، ﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾[6] ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾[7].

فإن قُلْتَ[8]: لم أفرد النور؟ **قُلْتُ**: للقصد إلى الجنس كقوله تعالى: ﴿والملك على أرجائها﴾[9] أو، لأنّ الظلمات كثيرة، لأنه ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار.

فإن قُلْتَ[10]: علام عطف قوله: **﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾**؟ **قُلْتُ**: إما على قوله: **﴿الحمد لله﴾** على

---

(1) سورة البقرة، الآية: 48.

(2) قال أحمد: ولو أجاب بحمل الصادقين على الدنيا، وصدقهم على الآخرة، حتى يكون التقدير هذا يوم ينفع الصادقين في الدنيا، صدقهم في الآخرة، لكان أوضح طباقاً لتفسير قتادة، وأخرج لإبليس وأشباهه من هذا العموم، فإن إبليس، وإن صدق في الآخرة، إلا أنه يكن من الصادقين في الدنيا، فلم ينفعه صدقه في الآخرة، والوجهان متقاربان.

(3) سورة الزخرف، الآية: 19.

(4) قال أحمد: وقد وردت جعل وخلق مورداً واحداً، فورد وخلق منها زوجها، وورد وجعل منها زوجها وذلك ظاهر في الترادف، إلا أن للخاطر ميلاً إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري، ويؤيده أن جعل لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتهما خلق وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للمميز بينهما. والله أعلم.

(5) سورة الأعراف، الآية: 189.

(6) سورة فاطر، الآية: 11.

(7) سورة صّ، الآية: 5.

(8) قال أحمد: وقد سبق للزمخشري الاستدلال بجمع الجنس على التكثير، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الأفراد، وقد قدمنا ما في ذلك من النظر، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة كتابه أكثر من كتبه على خلاف ذلك، وهو رأي الإمام أبي المعالي، ولو قال = الزمخشري: إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذي ينشأ عنه، وهو النار لكان أولى، والله أعلم.

(9) سورة الحاقة، الآية: 17.

(10) قال أحمد: وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب دخوله في حكمها، ولو قال الحمد لله الذي. الذين كفروا بربهم يعدلون لم يسند لخلو الجملة من العائد، ويمكن أن يقال: وضع الظاهر الذي هو ربهم موضع المضمر تفخيماً وتعظيماً، وأصل الكلام الذي يعدل به الذين كفروا، أو الذي الذين كفروا يعدلون به باتساع وقوعها صلة رعاية لهذا الأصل، فهذا نظر من حيث الإعراب ونظيره، قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم﴾ فيمن جعل ما موصولة لا شرطية، فإنّ دخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعي ضميراً عائداً إلى الموصول، وهو: مفقود لفظاً؛ لأنّ الظاهر وضع فيه موضع المضمر، والأصل: ثم جاءكم رسول مصدّق له، فاستقام عطفه ودخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة لكن بقي في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الإعراب المذكور، وهو: أن يصير التقدير الحمد لله الذي الذين كفروا يعدلون، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى، فالوجه والله أعلم، عطفه على أوّل الكلام لا على الصلة، والله الموفق.

معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة، ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ فيكفرون نعمته، وإما على قوله: ﴿خلق السموات﴾ على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه.

فإن قُلْتَ: فما معنى ﴿ثم﴾؟ **قُلْتُ:** استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك ﴿ثم أنتم تمترون﴾ استبعاد لأن يمتروا فيه بعدما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾.

﴿ثم قضى أجلاً﴾ أجل الموت ﴿وأجل مسمى عنده﴾ أجل القيامة، وقيل: الأجل الأوّل: ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثاني: ما بين الموت والبعث، وهو البرزخ، وقيل: الأوّل النوم، والثاني: الموت.

فإن قُلْتَ[1]: المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخيره. فلم جاز تقديمه في قوله: ﴿وأجل مسمى عنده﴾؟ **قُلْتُ:** لأنّه تخصص بالصفة فقارب المعرفة، كقوله: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك﴾[2].

فإن قُلْتَ: الكلام السائر أن يقال: عندي ثوب جيد، ولي عبد كيِّس، وما أشبه ذلك، فما أوجب التقديم؟ **قُلْتُ:** أوجبه أن المعنى وأي أجل مسمى عنده، تعظيماً لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى، وجب التقديم.

وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾.

﴿في السموات﴾ متعلق بمعنى اسم الله،[3] كأنه قيل: وهو المعبود فيها، ومنه قوله: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾[4] وهو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالإلهية فيها، أو هو الذي يقال له الله فيها لا يشرك به في هذا الاسم، ويجوز أن يكون الله في السموات خبراً بعد خبر، على معنى: أنه الله، وأنه في السموات والأرض، بمعنى: أنه عالم بما فيهما، لا يخفى عليه منه شيء، كأن ذاته فيهما[5].

فإن قُلْتَ: كيف موقع قوله: ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ **قُلْتُ:** إن أردت المتوحد بالإلهية كان تقريراً له؛ لأنّ الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده، وكذلك إذا جعلت في السموات خبراً بعد خبر، وإلا فهو كلام مبتدأ، بمعنى: هو يعلم سركم وجهركم، أو خبر ثالث. ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ من الخير والشر، ويثيب عليه ويعاقب.

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾.

من في ﴿من آية﴾ للاستغراق وفي ﴿من آيات ربهم﴾ للتبعيض يعني: وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار، إلا كانوا عنه معرضين، تاركين للنظر لا يلتفتون إليه، ولا يرفعون به رأساً، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب.

فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾.

﴿فقد كذّبوا﴾ مردود على كلام محذوف كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها وهو الحق ﴿لما جاءهم﴾ يعني: القرآن الذي تحدوا به على تبالغهم في الفصاحة، فعجزوا عنه ﴿فسوف ياتيهم أنباء﴾ الشيء الذي ﴿كانوا به يستهزؤن﴾ وهو: القرآن أي أخباره وأحواله بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزؤا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا، أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾.

مكّن له في الأرض: جعل له مكاناً فيها ونحوه: أرض له، ومنه قوله: ﴿إنا مكّنا له في الأرض﴾[6] ﴿أولم نمكّن لهم﴾[7] وأمّا مكّنته في الأرض: فأثبته فيها ومنه قوله: ﴿ولقد مكّناهم فيما إن مكّناكم فيه﴾[8] ولتقارب المعنيين

---

(1) قال أحمد: وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم، وقد ورد وعنده علم الساعة في سياق التعظيم لها، وهو مع ذلك: مؤخر عن الخبر في قوله: ﴿تبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما، وعنده علم الساعة، وإليه ترجعون﴾ فالظاهر والله أعلم: أن التقديم إنما كان؛ لأنّ الكلام منقول من كلام آخر، وكان الأصل والله أعلم، ثم قضى أجلاً وأجلاً مسمى عنده، إذ كلاهما مقضى، فلما عدل بالكلام عن العطف الإفرادي تمييزاً بين الأجلين رفع الثاني بالابتداء، وأقرّ بمكانه من التقديم، والله أعلم.

(2) سورة البقرة، الآية: 221.

(3) قال أحمد: وما الآيتان الكريمتان، إلا توأمتان، فإنّ التمدح في آية الزخرف وقع بما وقع التمدح به، ههنا من القدرة على الإعادة، والاستئثار بعلم الساعة، والتوحد في الألوهية، وفي كونه تعالى= = المعبود في السموات، والأرض.

(4) سورة الزخرف، الآية: 84.

(5) قال أحمد: وهذه الوجوه كلها كأن التعبير وقع فيها بالملزوم عن لوازمه المشهورة به، كما وقع ذلك في قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

أي: المعروف المشهور؛ لأنه بنى على أنه متى ذكر شعره، فهم السامع عند ذكره خواصه من الجودة، والبلاغة، وسلامة النسج، لاشتهاره بذلك، فاقتصر على قوله شعري اتكالاً على فهم السامع.

(6) سورة الكهف، الآية: 84.

(7) سورة القصص، الآية: 57.

(8) سورة الأحقاف، الآية: 26.

جمع بينهما في قوله: ﴿مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم﴾ والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثموداً وغيرهم من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال، والاستظهار بأسباب الدنيا، والسماء المظلة؛ لأنّ الماء ينزل منها إلى السحاب والسحاب أو المطر. والمدرار: المغزار.

فإن قُلْتَ: أي فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم **قُلْتُ:** الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم، فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده كقوله تعالى: ﴿ولا يخاف عقباها﴾[1].

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾.

﴿كتابًا﴾ مكتوبًا ﴿في قرطاس﴾ في ورق ﴿فلمسوه بأيديهم﴾[2] ولم يقتصر بهم على الرؤية؛ لئلا يقولوا: سكرت أبصارنا ولا تبقى لهم علة لقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ نعتاً، وعناداً للحق بعد ظهوره.

وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾.

﴿لقضي الأمر﴾ لقضي أمر إهلاكهم ﴿ثم لا ينظرون﴾[3] بعد نزوله طرفة عين، إما لأنهم إذا عاينوا الملك «قد نزل على رسول الله ﷺ في صورته»[4] وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ثم لا يؤمنون، كما قال: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى﴾[5] لم يكن بد من إهلاكهم كما أهلك أصحاب المائدة، وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة، فيجب إهلاكهم،[6] وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون[7]، ومعنى ﴿ثم﴾ بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الإنظار، جعل عدم الانظار أشدّ من قضاء الأمر؛ لأنّ مفاجأة الشدّة أشدّ من نفس الشدّة.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾.

﴿ولو جعلناه ملكاً﴾ ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك، وتارة يقولون: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾[8] و ﴿لو شاء ربّنا لأنزل ملائكة﴾[9]؛ ﴿لجعلناه رجلاً﴾ لأرسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله ﷺ في أعم الأحوال في صورة دحية[10]؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم ﴿وللبسنا عليهم﴾ ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ، فإنهم يقولون إذا رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل على أني ملك أني جئت بالقرآن المعجز، وهو ناطق بأني ملك لا بشر، كذبوه كما كذبوا محمداً ﷺ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن فهو لبس الله عليهم، ويجوز أن يراد وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة، وقرأ ابن محيصن: ولسنا عليهم بلام واحدة وقرأ الزهري: وللبسنا عليهم ما يلبسون بالتشديد.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾.

﴿ولقد استهزئ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يلقى من قومه ﴿فحاق﴾ بهم فأحاط بهم الشيء الذي كانوا يستهزؤن به، وهو الحق، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(1) سورة الشمس، الآية: 15.

(2) قال أحمد: والظاهر أن فائدة زيادة لمسوه له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب، أي: فقرؤه وهو في أيديهم لا بعيد عنهم لما آمنوا، وإلا فالخط لا يدرك باللمس، حتى يجعل فائدة زيادته إدراكه بوجهين كما يفهم من كلام الزمخشري.

(3) قال أحمد: لا يحسن أن يجعل سبب مناجزتهم بالهلاك وضوح الآية في نزول الملك، فإنه ربما يفهم هذا الكلام، أن الآيات التي لزمهم الإيمان بها دون نزول الملك في الوضوح، وليس الأمر كذلك، فالوجه والله أعلم: أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه المعجز، من حيث كونه معجزاً، لا المعجز الخاص، فإذا أجيبوا على وفق مقترحهم، فلم ينجع فيهم كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب، لعدم النظرة، والله أعلم. عاد كلامه قال: وإما لأنه يزول الاختيار الذي قاعدة التكليف مبنية عليه عند نزول الملك، فيجب إهلاكهم، وإما؛ لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته، زهقت أرواحهم من = هول ما يشاهدون.

(4) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة النجم، باب: (1) (الحديث رقم: 4855)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قول الله عز وجل ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ (الحديث رقم: 438).

(5) سورة الانعام، الآية: 111.

(6) قال أحمد: ويقوي هذا الوجه قوله: ﴿ولو جعلناه ملكاً، لجعلناه رجلاً﴾ قال ابن عباس: ليتمكنوا من رؤيته، ولا يهلكوا من مشاهدة صورته.

(7) قال أحمد: وهذه النكتة من محاسن تنبيهاته.

(8) سورة المؤمنون، الآية: 23 و24.

(9) سورة فصلت، الآية: 14.

(10) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب: «فضائل القرآن»، باب: كيف نزول الوحي، (الحديث رقم: 4980) عن أسامة بن زيد، ومسلم في صحيحه كتاب: «فضائل الصحابة» باب: من فضائل أم سلمة (الحديث رقم: 6265).

ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾.

فإن قُلْتَ[1]: اي فرق بين قوله ﴿فانظروا﴾ وبين قوله: ﴿ثم انظروا﴾؟ **قُلْتُ**: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله: ﴿فانظروا﴾[2] فكانه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، وأما قوله: **﴿سيروا في الأرض ثم انظروا﴾** فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة، وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر في آثار الهالكين، ونبّه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح.

قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾.

﴿لمن ما في السموات والأرض﴾ سؤال تبكيت و **﴿قل لله﴾** تقرير لها أي: هو الله لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً منه إلى غيره **﴿كتب على نفسه الرحمة﴾** أي: أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته ونصب الأدلة لكم على توحيده، بما أنتم مقرون به من خلق السموات والأرض. ثم أوعدهم على إغفالهم النظر، وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله: **﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾** فيجازيكم على إشراككم وقوله: **﴿الذين خسروا أنفسهم﴾** نصب على الذم أو رفع أي: أريد الذين خسروا أنفسهم أو أنتم الذين خسروا أنفسهم.

فإن قُلْتَ: كيف جعل عدم إيمانهم مسبباً عن خسرانهم والأمر على العكس؟ **قُلْتُ**: معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون.

۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾.

﴿وله﴾ عطف على الله **﴿ما سكن في الليل والنهار﴾** من السكنى وتعديه بفي كما في قوله: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾[3] **﴿وهو السميع العليم﴾** يسمع كل مسموع، ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾.

أولىّ غير الله همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو أتخذ؛ لأنّ الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم ونحوه: ﴿أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾[4] ﴿آلله أذن لكم﴾[5] وقرئ: فاطر السموات بالجر صفة لله، وبالرفع على المدح، وقرأ الزهري: فطر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي: ابتدعتها[6] **﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾** وهو يرزق ولا يرزق كقوله: ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾[7] والمعنى: أنّ المنافع كلها من عنده ولا يجوز عليه الانتفاع وقرئ: ولا يطعم بفتح الياء وروى ابن المأمون، عن يعقوب: وهو يطعم ولا يطعم على بناء الأوّل للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: وهو يطعم ولا يطعم على بنائهما للفاعل، وفسّر بأن معناه: وهو يطعم ولا يستطعم، وحكى الأزهري: أطعمت بمعنى: استطعمت ونحوه أفدت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح كقولك: هو يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويغني ويفقر، **﴿أول من أسلم﴾** لأنّ النبي ﷺ سابق أمته في الإسلام كقوله: ﴿وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾[8] وكقول موسى: ﴿سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾[9] **﴿ولا تكونن﴾** وقيل لي: لا تكونن **﴿من المشركين﴾** ومعناه: أمرت بالإسلام، ونهيت عن الشرك.

مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾.

و**﴿من يصرف عنه﴾** العذاب **﴿يومئذ فقد رحمه﴾** الله الرحمة العظمى[10] وهي النجاة كقولك: إن أطعمت زيداً من جوعه فقد أحسنت إليه، تريد: فقد أتممت الإحسان إليه، أو

---

(1) قال أحمد: وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير في المكانين واحداً، ليكون ذلك سبباً في النظر، فحيث دخلت الفاء، فلإظهار السببية وحيث دخلت، ثم فللتنبيه على أن النظر، هو: المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير وشتان بين المقصود، والوسيلة والله أعلم. قوله تعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم من يصرف عنه يومئذ، فقد رحمه، وذلك الفوز المبين﴾.

(2) سورة آل عمران، الآية: 137.

(3) سورة إبراهيم، الآية: 45.

(4) سورة الزمر، الآية: 64.

(5) سورة يونس، الآية: 69.

(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان 2/258 كتاب: في طلب العلم، = (الحديث رقم: 1682).

(7) سورة الذاريات، الآية: 57.

(8) سورة الأنعام، الآية: 163.

(9) سورة الأعراف، الآية: 143.

(10) قال أحمد: وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة، إمّا بكونها العظمى، وإمّا برحمة الثواب، أنه لو بقيت على إطلاقها، لما زاد الجزاء على الشرط من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما، والعجب أنّ الزمخشري يصحح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب، ولابدّ وغيره يصحح هذا التخصيص، أنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب لجواز أن يصرف عنه العذاب، ولا يثاب، فأقاد الجزاء، إذاً فائدة لم تفهم من الشرط هكذا صححه القونوي، ولعمري وإن قاعدة المعتزلة تلجئ إلى ما ذهب إليه الزمخشري، لانقسام المكلفين عندهم إلى مستوجب للجنة، فالعذاب قطعاً، ويسندون ذلك إلى العقل لا إلى السمع.

فقد أدخله الجنة؛ لأنّ من لم يعذب لم يكن له بد من الثواب، وقرئ*: من يصرف عنه على البناء للفاعل، والمعنى: من يصرف الله عنه في ذلك اليوم أي: فقد رحمه بمعنى: من يرفع الله عنه ويحفظه، وقد علم من المدفوع عنه، وترك ذكر المصروف لكونه معلوماً أو مذكوراً قبله وهو العذاب ويجوز أن ينتصب يومئذ انتصابها المفعول به أي من يصرف الله عنه ذلك اليوم أي: هوله فقد رحمه، وينصر هذه القراءة قراءة أبيّ رضي الله عنه: من يصرف الله عنه.

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾.

﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو **﴿وإن يمسسك بخير﴾** من غنى أو صحة **﴿فهو على كل شيء قدير﴾** فكان قادراً على إدامته، أو إزالته[1].

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾.

﴿فوق عباده﴾ تصوير للقهر، والعلو بالغلبة والقدرة كقوله: **﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾**[2].

قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾.

الشيء أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم، ولذلك صحّ أن يقال في الله عزّ وجلّ: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح جسم لا كالأجسام. وأراد أي شهيد **﴿أكبر شهادة﴾** فوضع شيئاً مقام شهيد؛ ليبالغ في التعميم **﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾** يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله: قل الله بمعنى: الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ* شهيد بيني وبينكم أي: هو شهيد بيني وبينكم، وأن يكون الله شهيد بيني وبينكم هو الجواب لدلالته على أنّ الله عزّ وجلّ إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكبر شيء شهادة شهيد له **﴿ومن بلغ﴾** عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة أي: لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم وقيل: من الثقلين وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة، وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ **﴿أئنكم لتشهدون﴾** تقرير لهم مع إنكار واستبعاد، **﴿قل لا أشهد﴾** شهادتكم.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾.

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني: اليهود والنصارى يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة **﴿كما يعرفون أبناءهم﴾** بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم، ولا يلتبسون بغيرهم، وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به، وبصحة نبوّته، ثم قال: **﴿الذين خسروا أنفسهم﴾** من المشركين، ومن أهل الكتاب الجاحدين **﴿فهم لا يؤمنون﴾** به جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: **﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾**[3] وقالوا: **﴿والله أمرنا بها﴾**[4]، وقالوا: الملائكة بنات الله، و**﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾**[5] ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها: سحراً، ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾.

﴿ويوم نحشرهم﴾ ناصبه محذوف تقديره ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف **﴿أين شركاؤكم﴾** أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، وقوله: **﴿الذين كنتم تزعمون﴾** معناه: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان. وقرئ*: يحشرهم، ثم يقول: بالياء فيهما، وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة، فكأنهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم.

ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾.

﴿فتنتهم﴾ كفرهم والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به وقالوا: دين آبائنا، إلا جحوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتفاء من

---

(1) قال أحمد: وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية، فإنهم فسروه بالموجود ليس إلا، والمعتزلة فإنهم قالوا: والمعلوم الذي يصح وجوده، فاتفقوا على خروج المستحيل، وعلى الجملة، فهذه المسألة معدودة من علم الكلام باعتبار مّا، وأما هذا البحث، فلغوي، والتحاكم فيه، لأهل اللغة وظاهر قولهم غضبت من لا شيء، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً أنّ الشيء لا ينطلق إلا على الموجود، إذ لو كان الشيء كل ما يصح أن يعلم عدماً كان، أو= = وجوداً أو ممكناً، أو مستحيلاً لما صدق على امر مّا انه ليس بشيء، والامر في ذلك قريب.

(2) سورة الأعراف، الآية: 127.

(3) سورة الأنعام، الآية: 148.

(4) سورة الأعراف، الآية: 28.

(5) سورة يونس، الآية: 18.

التدين به ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا، فسمي فتنة؛ لأنه كذب. وقرئ: تكن بالتاء، وفتنتهم بالنصب، وإنما أنّث أن قالوا لوقوع الخبر مؤنثاً كقولك: من كانت أمّك، وقرئ بالياء ونصب الفتنة، وبالياء والتاء مع رفع الفتنة. وقرئ ربنا بالنصب على النداء[1].

أَنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿وضلّ عنهم﴾ وغاب عنهم ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي: يفترون إلٰهيته وشفاعته.

فإن قُلْتَ: كيف يصحّ أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ **قُلْتُ:** الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً، ألا تراهم يقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾[2]، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾[3] وقد علموا أنه لا يقضى عليهم، وأما قول من يقول معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا، وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وحمل قوله: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾ يعني: في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عيّ وإفحام؛ لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشدّ النبوّ، وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾[4] بعد قوله: ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾[5] فشبّه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾.

﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ حين تتلوا القرآن، روي أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم، يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ، فقالوا للنضر: يا أبا فتيلة ما يقول محمد؟ فقال: والذي جعلها بيته ـ يعني: الكعبة ـ ما أدري ما يقول، إلا أنه يحرّك لسانه ويقول: أساطير الأوّلين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً، فقال أبو جهل: كلا، فنزلت[6]. والأكنة على القلوب والوقر في الآذان مثل في نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته، ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله: ﴿وجعلنا﴾ للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه، أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم ﴿وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾[7]، وقرأ طلحة وقرأ بكسر الواو ﴿حتى إذا جاؤك يجادلونك﴾ هي: حتى التي تقع بعدها الجمل، والجملة قوله: ﴿إذا جاؤك﴾؛ ﴿يقول الذين كفروا﴾ ويجادلونك في موضع الحال، ويجوز أن تكون الجارة، ويكون إذا جاؤك في محل الجرّ بمعنى: حتى وقت مجيئهم، ويجادلونك حال، وقوله: ﴿يقول الذين كفروا﴾ تفسير له، والمعنى أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك، وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون ﴿إن هذا إلا أساطير الأوّلين﴾ فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث خرافات وأكانيب وهي الغاية في التكذيب.

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿وهم ينهون﴾ الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه ويثبطونهم عن الإيمان به ﴿وينأون عنه﴾ بأنفسهم، فيضلون ويضلون ﴿وإن يهلكون﴾ بذلك ﴿إلا أنفسهم﴾ ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله ﷺ، وقيل: هو أبو طالب؛ لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأى عنه ولا يؤمن به، وروي أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وأرادوا برسول الله ﷺ سوء[8] فقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقرّ منه عيوناً
ودعوتني وزعمت أنك ناصح ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

فنزلت.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا

---

(1) قال أحمد: وفي الآية دليل بيّن على أن الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به كذب، وإن لم يعلم المخبر مخالفة خبره لمخبره، ألا تراه جعل إخبارهم، وتبريهم كذباً مع أنه تعالى أخبر أنهم ضلّ عنهم ما كانوا يفترون، أي: سلبوا علمه حينئذ دهشاً وخبره، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم.

(2) سورة المؤمنون، الآية: 107.

(3) سورة الزخرف، الآية: 77.

(4) سورة المجادلة، الآية: 18.

(5) سورة المجادلة، الآية: 14.

(6) قال أحمد رحمه الله: وهذه الآية حسبنا في رد معتقد، القدرية الذي يزعمون أن الله تعالى، أراد من هؤلاء المستمعين أن يعوا القرآن، ويفقهوه، وأنه لم يمنعهم من ذلك، ومحال على زعمهم أن يمنعهم من ذلك، ويريد أن لا يفقهوه؛ لأن ذلك عندهم قبيح، فانظر كيف تكافحهم هذه الآية بالردّ وتنادي عليهم بالخطأ، إذ قوله أن يفقهوه معناه: كراهة أن يفقهوه، وبين الإرادة على زعمهم، والكراهة على ما انبأك عنه الآية بون بعيد، والله الموفق.

(7) سورة فصلت، الآية: 5.

(8) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾.

﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف تقديره ولو ترى لرأيت أمراً شنيعاً ﴿ووقفوا على النار﴾ أروها حتى يعاينوها، أو اطلعوا عليها اطلاعاً هي تحتهم، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، من قولك: وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته. وقرئ: ووقفوا على البناء للفاعل من وقف عليه وقوفاً ﴿يا ليتنا نرد﴾ ثم تمنيهم ثم ابتدؤا ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ واعدين الإيمان كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات، وشبهه سيبويه بقولهم: دعني ولا أعود بمعنى: دعني وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني، ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد، أو حالاً على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيدخل تحت حكم التمني.

فإن قُلْتَ: يدفع ذلك قوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾[1] لأنّ المتمني لا يكون كاذبًا **قُلْتُ:** هذا تمن قد تضمن معنى العدة فجاز أن يتعلق به التكذيب كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالاً فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمن في معنى الواعد، فلو رزق مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب كأنه قال: إن رزقني الله مالاً كافأتك على الإحسان[2]، وقرئ: ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التمني ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم، وبشهادة جوارحهم عليهم، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً، إلا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا، وقيل: هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه، وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوّة رسول الله ﷺ ﴿ولو ردّوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وإنهم لكاذبون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به.

وَقَالُوٓا إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿وقالوا﴾ عطف على ﴿لعادوا﴾[3] أي: ولو ردوا الكفر ولقالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة، ويجوز أن يعطف على قوله: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ على معنى: وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ وكفى به دليلاً على كذبهم[2].

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿ووقفوا على ربهم﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه، وقيل: وقفوا على جزاء ربهم، وقيل: عرفوه حق التعريف ﴿قال﴾ مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال: ﴿أليس هذا بالحق﴾ وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء: ما هو بحق، وما هو إلا باطل ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بكفركم بلقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، وقد حقّق الكلام فيه في مواضع أخر.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾.

﴿حتى﴾ غاية لكنبوا لا لخسر؛ لأنّ خسرانهم لا غاية له، أي: ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة.

فإن قُلْتَ: أما يتحسرون عند موتهم؟ **قُلْتُ:** لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدّماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من مات فقد قامت قيامته»[4]. أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة ﴿بغتة﴾ فجأة، وانتصابها على الحال بمعنى باغتة، أو على المصدر، كأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة، ﴿فرّطنا فيها﴾ الضمير للحياة الدنيا، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة، أو للساعة على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرّطت في فلان ومنه ﴿فرّطت في جنب الله﴾[5] ﴿يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ كقوله: ﴿فبما كسبت أيديكم﴾[6] لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور كما ألف الكسب بالأيدي، ﴿ساء ما يزرون﴾ بئس شيئاً يزرون وزرهم كقوله: ﴿ساء مثلاً القوم﴾[7].

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وكثيراً ما نتناوب صيغة التمني، والخبر: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ في قوله: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ ولنكونن من الصالحين﴾ إلى قوله: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ وهذه المعاهدة إنما كانت تمنياً بصيغة الخبر، والله أعلم، وأبين من ذلك، قوله تعالى: في آية أخرى: ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل،= = فهذا هو التمني بعينه، ولكن بصيغة الوعد، والخبر الصريحة، والله الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 28.

(4) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

(5) سورة الزمر، الآية: 56.

(6) سورة الشورى، الآية: 30.

(7) سورة الأعراف، الآية: 177.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾.

جعل أعمال الدنيا لعبًا ولهوًا واشتغالاً بما لا يعني ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة ﴿وقوله للذين يتقون﴾ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عباس رضي الله عنه ولدار الآخرة. وقرئ تعقلون بالتاء والياء.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾.

قد في ﴿قد نعلم﴾[1] بمعنى: ربما الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته كقوله:

أخائفة لا نهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

والهاء في ﴿إنه﴾ ضمير الشأن ﴿ليحزنك﴾ قرئ بفتح الياء وضمها و ﴿الذي يقولون﴾ هو: قولهم ساحر كذاب[2] ﴿لا يكذبونك﴾ قرئ بالتشديد والتخفيف من كذبه إذا جعله كاذبًا في زعمه، وأكذبه إذا وجده كاذبًا والمعنى: أنّ تكذيبك أمر راجع إلى الله؛ لأنك رسوله المصدّق بالمعجزات، فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليشغلك عن ذلك ما هو أهمّ وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه، ونحوه قول السيد لغلامه إذا أهانه بعض الناس إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني، وفي هذه الطريقة قوله تعالى: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[3] وقيل: فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ولكنهم يجحدون بألسنتهم، وقيل: فإنهم لا يكذبونك؛ لأنك عندهم الصادق الموسوم بالصدق ولكنهم يجحدون بآيات الله، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يسمى الأمين، فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ولكنهم كانوا يجحدون[4]، وكان أبو جهل يقول: ما نكذبك لأنك عندنا صادق، وإنما نكذب ما جئتنا به، وروي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إنّ محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والنبوّة فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت. وقوله: ﴿ولكن الظالمين﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم[5].

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿ولقد كذبت﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، وهذا دليل على أن قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾[6] ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانوني، ﴿على ما كذبوا وأوذوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ لمواعيده من قوله: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون﴾[7] ﴿ولقد جاءك من نبا المرسلين﴾ بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرة المشركين.

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾.

كان يكبر على النبي ﷺ كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل ﴿لعلك باخع نفسك﴾[8] ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾[9] ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع له آية يؤمنون بها ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم منها بآية﴾ فافعل يعني: أنك لا تستطيع ذلك، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم آية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم، وقيل:

---

(1) قال أحمد: ومثلها في قوله، وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، فإنه يكثر علمهم برسالته، ويؤكده بظهور آياته، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين أذيته ورسوخ علمهم برسالته، والله أعلم، ومنه أيضاً قوله:

قد أترك القرن مصفراً أنامله

والغرض: التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه تنبيهاً على أنه بلغ الآية، التي ما بعدها إلا الرجوع إلى الضدّ وذلك من لطائف لغة العرب، وغرائبها. (قال: وقرئ يكذبونك بالتشديد، والتخفيف من كذبه إلى قوله، ولكن الظالمين إلخ).

(2) قال أحمد: وفي هذا النوع من إقامة الظاهر، مقام المضمر فنان من نكت البيان إحداهما الإسهاب في ذمّهم، وهذه النكتة يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهراً، حتى لو كان لقباً جامعاً، والأخرى: زيادة منه تؤكد ذمّهم تفهم من اشتقاق الظاهر.

(3) سورة الفتح، الآية: 10.

(4) قال الزيلعي: غريب من حديث ابن عباس ورواه ابن سعد في = الطبقات من حديث يعلى بن أمية (437/1).

(5) قال أحمد: ولا دلالة فيه؛ لأنه مؤتلف مع نفي التكذيب أيضاً، وموقعه حينئذ من الفضيلة أبين أي: هؤلاء لم يكذبوك، فحقك أن تصبر عليهم، ولا يحزنك أمرهم، وإذا كان من قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم، فصبروا عليهم، فأنت إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر، فقد ائتلف، كما ترى بالتفسيرين جميعاً، ولكنه من غير الوجه الذي استدلّ به، فيه تقريب لما اختاره، وذلك أنّ مثل هذه التسلية قد وردت مصرحاً بها في نحو قوله، وإن يكذبوك، ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾ فسلاه عن تكذيبهم له، بتكذيب غيرهم من الأمم، لأنبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظائر، والله أعلم.

(6) سورة الأنعام، الآية: 33.

(7) سورة الصافات، الآيتان: 171، 172.

(8) سورة الكهف، الآية: 6.

(9) سورة القصص، الآية: 56.

كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا إليها لتمادي حرصه على إيمانهم، فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله، حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون، ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو: الإتيان بالآيات كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقي إلى السماء لفعلت لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها، وحذف جواب أن كما تقول: إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان تزوره ﴿**ولو شاء الله لجمعهم على الهدى**﴾[1] بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿**فلا تكونن من الجاهلين**﴾ من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾.

﴿**إنما يستجيب الذين يسمعون**﴾ يعني: أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب من يسمع كقوله: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾[2] ﴿**والموتى يبعثهم الله**﴾ مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ﴿**ثم إليه يرجعون**﴾ للجزاء، فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان وأنت لا تقدر على ذلك، وقيل معناه: وهؤلاء الموتى يعني: الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون فحينئذ يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم، وقرئ: يرجعون بفتح الياء.

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾.

﴿**لولا نزل عليه آية**﴾ نزل بمعنى: أنزل. وقرئ: أن ينزل بالتشديد والتخفيف وذكر الفعل والفاعل مؤنث؛ لأنّ تأنيث آية غير حقيقي وحسن للفصل، وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله ﷺ لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم ﴿**قل إن الله قادر على أن ينزل آية**﴾ تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل على بني إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب ﴿**ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾ أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، وأن صارفاً من الحكمة يصرفه عن إنزالها.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ ۖ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾.

﴿**أمم أمثالكم**﴾ مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها، كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم ﴿**ما فرطنا**﴾ ما تركنا وما أغفلنا ﴿**في الكتاب**﴾ في اللوح المحفوظ ﴿**من شيء**﴾ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به ﴿**ثم إلى ربهم يحشرون**﴾ يعني: الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض، كما روي أنه: يأخذ للجماء من القرناء.

فإن قُلْتَ: كيف قيل: ﴿**إلا أمم**﴾ مع إفراد ﴿**الدابة**﴾ و ﴿**الطائر**﴾؟ **قُلْتُ:** لما كان قوله تعالى: ﴿**وما من دابة في الأرض ولا طائر**﴾ دالاً على معنى الاستغراق ومغنياً عن أن يقال: وما من دواب ولا طير، حمل قوله: ﴿**إلا أمم**﴾ على المعنى.

فإن قُلْتَ[3]: هلا قيل وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم وما معنى زيادة قوله: ﴿**في الأرض**﴾ ﴿**ويطير بجناحيه**﴾؟ **قُلْتُ:** معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل: وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها.

فإن قُلْتَ: فما الغرض في ذكر ذلك؟ **قُلْتُ:** الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لمالها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان. وقرأ ابن أبي عبلة ولا طائر بالرفع على المحل كأنه قيل: وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة: ما فرطنا بالتخفيف.

فإن قُلْتَ: كيف أتبعه قوله: ﴿**والذين كذبوا بآياتنا**﴾ **قُلْتُ:** لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادي على عظمته قال: والمكذبون ﴿**صم**﴾ لا يسمعون كلام المنبه ﴿**بكم**﴾ لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات

---

(1) قال أحمد: وهذه الآية أيضاً، كافلة بالردّ على القدرية في زعمهم، أن الله تعالى شاء جميع الناس كلهم على الهدى، فلم يمكن الا ترى أن الجملة مصدرة بلو، ومقتضاها امتناع جوابها، لامتناع الواقع بعدها، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً، إنما كان لامتناع المشيئة، فمن ثم ترى الزمخشري يحمل المشيئة على قهرهم على الهدى، بآية ملجئة لا يكون الإيمان معها اختياراً، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع، وإن مشيئة اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ثابتة غير ممتنعة، ولكن لم يقع متعلقها، وهذه من خباياه ومكامنه، فاحذرها، والله الموفق.

(2) سورة النمل، الآية: 80.

(3) قال أحمد: ولم يبين وجه زيادتها للتعميم، ولقائل أن يقول: يلزم من العموم في أجناس الطير دخول كل طائر في الجوّ، في العموم، وإن لم ينكر في الجو، وكذلك يلزم من عموم الدواب في سائر أصنافها أن يندرج في ذلك كل دابة في الأرضين، وإن لم ينكر في الأرض، فلا بد من بيان وجه الزيادة، فنقول: وقع قوله في الأرض، ويطير بجناحيه موقع الوصف العام، وصفة العام عامة ضرورة المطابقة، فكانه مع زيادة الصفة تظافرت صفتان عامتان، والله أعلم.

الكفر فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه، ثم قال: إيذانًا بأنهم من أهل الطبع ﴿من يشا الله يضلله﴾[1] أي: يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به؛ لأنه ليس من أهل اللطف ﴿ومن يشا يجعله على صراط مستقيم﴾ أي: يلطف به؛ لأنّ اللطف يجدي عليه.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾

﴿أرايتكم﴾ أخبروني والضمير الثاني لا محل له من الإعراب؛ لأنك تقول: أرايتك زيدًا ما شأنه، فلو جعلت للكاف محلاً لكنت كأنك تقول: أرأيت نفسك زيدًا ما شأنه، وهو خلف من القول[2]، ومتعلق الاستخبار محذوف تقديره إن أتاكم عذاب الله ﴿أو أتتكم الساعة﴾ من تدعون، ثم بكتهم بقوله ﴿أغير الله تدعون﴾ بمعنى: أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر أم تدعون الله دونها! ﴿بل إياه تدعون﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ أي: ما تدعونه إلى كشفه ﴿إن شاء﴾ إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة[3]، وتنسون ما تشركون وتتركون آلهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت؛ لأنّ أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره[4]، ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله: ﴿أغير الله تدعون﴾ كأنه قيل: أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله.

فإن قُلْتَ: إن علقت بالشرط به، فما تصنع بقوله: ﴿فيكشف ما تدعون﴾ إليه مع قوله: ﴿أو أتتكم الساعة﴾؟ وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين **قُلْتُ**: قد اشترط في الكشف المشيئة وهو قوله: ﴿إن شاء﴾ إيذانًا بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه. البأساء والضراء البؤس والضر، وقيل: البأساء القحط والجوع، والضراء المرض ونقصان الأموال والأنفس، والمعنى: ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم ﴿لعلهم يتضرعون﴾ يتذللون ويتخشعون لربهم، ويتوبون عن ذنوبهم.

فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

﴿فلولا إذ جاءهم باسنا تضرعوا﴾ معناه: نفي التضرع كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم باسنا، ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع، إلا عنادهم وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ من البأساء والضراء أي: تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلبًا لصلاحه ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ من الخير والنعم لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار ﴿أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ واجمون متحسرون آيسون.

فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فقطع دابر القوم﴾ آخرهم، لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم ﴿والحمد لله رب العالمين﴾[5] إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم. وقرئ: فتحنا بالتشديد.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

﴿إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ بأن يصمكم ويعميكم ﴿وختم على قلوبكم﴾ بأن يغطي عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم ﴿يأتيكم به﴾ أي: يأتيكم بذاك، إجراء

---

(1) قال أحمد: وهذا من تحريفاته للهداية، والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد في أنّ الله تعالى، لا يخلق الهدى ولا الضلال، وأنهما من جملة مخلوقات العباد، وكم تخرق عليه هذه العقيدة، فيروم أن يرقعها، وقد اتسع الخرق على الراقع، والله الموفق.

(2) قال أحمد: هو لا يدع أن يحجر واسعاً، فيوجب على الله رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة الصلاح، والأصلاح، قال: ﴿وتنسون ما تشركون﴾، أي: وتتركون آلهتكم الخ.

(3) قال أحمد: وإنما يلقى الاختصاص حيث يقول معناه: أتخصون آلهتكم، ثم قال: بل تخصون الله بالدعاء من حيث تقدّم المفعول على الفعل في قوله: أغير الله تدعون، وقوله: بل إياه تدعون، وتقديم المفعول عنده يفيد الاختصاص، والحصر.

(4) قال أحمد: ولقد سدّد النظر لولا أنه نغص ذلك بما يفهم وجوب= مراعاة المصالح، وأنّ مشيئة الله تعالى تابعة للمصلحة، وقد تقدّم آنفاً، فاحذره وعليك بما سواه، فإنه من بديع النظر، والله الموفق.

(5) قال أحمد: ونظيرها، قوله تعالى: ﴿وامطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، فيمن وقف ههنا وجعل الحمد على إهلاك المتقدّم ذكرهم من الطاغين ومنهم من وقف على المنذرين، وجعل الحمد متصلاً بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه جل جلاله خير مما يشركون، فعلى الأوّل يكون الحمد حتماً وعلى الثاني فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرعاً، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحاً لما بعده، وفي آية الأنعام ختم لما تقدّمه حتماً إذ لا يقتضى السياق غير ذلك، والله أعلم.

للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه ﴿يصدقون﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾.

لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته قيل ﴿بغتة أو جهرة﴾ وعن الحسن ليلاً أو نهارًا وقرئ: بغتة أو جهرة ﴿هل يهلك﴾ أي: ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ: يهلك بفتح الياء.

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿مبشرين ومنذرين﴾ من آمن بهم وبما جاؤوا به وأطاعهم ومن كذبهم وعصاهم، ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة ﴿وأصلح﴾ ما يجب عليه إصلاحه مما كلف. جعل العذاب ماسًّا كأنه حيّ يفعل بهم ما يريد من الآلام ومنه قولهم: لقيت منه الأمرين والأقورين حيث جمعوا جمع العقلاء، وقوله: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا﴾[1] أي: لا أدّعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله، وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه، وعلم الغيب، وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه أي: لم أدّع إلٰهية ولا ملكية؛ لأنه ليس بعد الإلٰهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها، وإنما أدّعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوّة[2] ﴿هل يستوي الأعمى والبصير﴾[3] مثل للضالّ والمهتدي، ويجوز أن يكون مثلاً لمن اتبع ما يوحي إليه ومن لم يتبع، أو لمن ادّعى المستقيم وهو النبوّة والمحال وهو الإلٰهية والملكية ﴿أفلا تتفكرون﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان، أو فتعلموا أني ما ادعيت ما لا يليق بالبشر، أو فتعلموا أن اتباع ما يوحي إلي مما لا بد لي منه.

فإن قُلْتَ: ﴿أعلم الغيب﴾ ما محله من الإعراب؟ **قُلْتُ:** النصب عطفًا على قوله ﴿عندي خزائن الله﴾؛ لأنه من جملة المقول كأنه قال: لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول.

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾.

﴿وأنذر به﴾ الضمير راجع إلى قوله: ﴿ما يوحى إلي﴾[4] و﴿الذين يخافون أن يحشروا﴾[5] إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث إلا أنهم مفرطون في

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 12.

(2) قال أحمد رحمه الله: هو ينبني على القاعدة المتقدّمة له في تفضيل الملائكة على الأنبياء، ولعمري أنّ ظاهر هذه الآية يؤيده، فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها ولمخالفه أن يقول إنما وردت الآية ردّاً على الكفار في قولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق لولا أنزل عليه ملك، فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز﴾ الآية، فردّ قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام بأنه بشر ونلك شأن البشر، ولم يدّع أنه ملك، حتى يتعجب من أكله للطعام وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء؛ لأنه لا خلاف أنّ الأنبياء يأكلون الطعام، وأنّ الملائكة ليسوا كذلك، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها، ولا يوجب نلك اتفاقاً على أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء، وكذلك ردّ قولهم: أو يلقى إليه كنز بأنه لا يملك خزائن الله تعالى، حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم، ولا قال لهم نلك حتى يقام عليه الحجة به، وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله لن يستنكف المسيح، أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقرّبون قال الزمخشري: لأنهم أعلى من الأنبياء، وقد أخر ههنا دعوى الملكية عن دعوى الإلٰهية إذ الإلٰهية أجلّ، وأعلى الملكية أدنى، ولا محل لذلك، إلا التمهيد الذي أسلفته، وقد جعلت الأمر في التقديم والتأخير تبعاً للسياق، فقد تقتضي البلاغة في بعضه عكس ما تقتضيه في الآخر ولم يحسن الزمخشري في قوله ليس بعد الإلٰهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، فإنه جعل الإلٰهية من جملة المنازل، كالملكية ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ والمنزلة عبارة عن المحل= = الذي ينزل الله فيه العبد من علوّ، وغيره، فإطلاقها على الإلٰهية تحريف، والله الموفق للصواب.

(3) قال أحمد: قوله وادعى المحال يعني: المستحيل ولذلك قابله بالمستقيم يريد الممكن وذلك مسبب عن دعوى الإلٰهية إذا ادّعاؤها لا يجوز أن يجعل البشر أنبياء، ويدلّ على هذا الجواز قوله، ولو جعلناه ملكاً، لجعلناه رجلاً هذا، مع أن العقل يجيزه في قدرة الله تعالى؛ لأنّ الجواهر متماثلة، والمعاني القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها، فالمعاني التي بها كان الملك ملكاً يجوز أن يخلقها الله تعالى، للبشر وبالعكس، وعدم وقوعه لا يأبى استقامته، وإمكانه والله الموفق.

(4) سورة الأنعام، الآية: 50.

(5) قال أحمد: وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل: أنذر به الذين يحشرون؛ لأنه لولا الحال لعمّ الأمر بالإنذار كل أحد، والمقصود: تخصيصه بالبعض، وأما وقد قيل: وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، فهذا الكلام مستقل برأسه، ومضمونه تخصيص الإنذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث، إما لأنهم مقرون به، وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم، فيحملهم الخوف على النظر المفضي إلى اليقين دون العتاة المصممين على الجحد، وليس كل خائف من البعث، لا شفيع له، فإن الموحدين أجمعين خائفون، وهم مشفوع لهم، وإن عنى باللازمة التي لا ينفك ذو الحال عنها، كالتي في قوله، وهو الحق مصدقاً، فإنما هو حينئذ يبني على قاعدته في إنكار الشفاعة، فكل خائف عنده لا شفيع له إذا لا يخاف، إلا أصحاب الكبائر غير التائبين، أو الكفار والكل=

العمل فينذرهم بما يوحى إليه ﴿لعلهم يتّقون﴾ أي: يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين، وإما أهل الكتاب؛ لأنهم مقرون بالبعث، وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقًا فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء. وقوله: ﴿ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع﴾ في موضع الحال من ﴿يحشروا﴾ بمعنى: يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعًا لهم ولا بد من هذه الحال؛ لأن كلاً محشور، فالمخوّف إنما هو الحشر على هذه الحال. ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتّقوا، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أي: عبادته ويواظبون عليها. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام وقيل: معناه يصلون صلاة الصبح والعصر، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله ﴿يريدون وجهه﴾ والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته روي أن رؤوسًا من المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون: فقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وبلال وخباب، وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم، وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب من صوف، جلسنا إليك وحادثناك، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بطارد المؤمنين، فقالوا: فاقمهم عنا إذا جئنا، فإذا قمنا فاقعدهم معك إن شئت، فقال: نعم طمعًا في إيمانهم[1]، وروي أن عمر رضي الله عنه قاله: لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون؟ قال: فاكتب بذلك كتابًا، فدعا بصحيفة وبعلي رضي الله عنه ليكتب فنزلت فرمى بالصحيفة واعتذر عمر من مقالته. قال سلمان وخباب: فينا نزلت، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم﴾[2] فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه. وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمّتي، معكم المحيا ومعكم الممات. ﴿وما عليك من حسابهم من شيء﴾ كقوله: ﴿إن حسابهم إلا على ربي﴾[3] وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال: ما عليك من حسابهم من شيء بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله في أعمالهم على معنى: وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة المتقين. وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم كقوله: ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾[4].

فإن قُلْتَ: أما كفى قوله: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ حتى ضم إليه ﴿وما من حسابهم عليهم من شيء﴾ **قُلْتُ:** قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى وفي قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعًا كأنه قيل: لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه، وقيل: الضمير للمشركين والمعنى: لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ﴿فتطردهم﴾ جواب النفي ﴿فتكون من الظالمين﴾ جواب النهي، ويجوز أن يكون عطفًا على فتطردهم على وجه التسبيب؛ لأن كونه ظالمًا مسبب عن طردهم. وقرئ: بالغدوة والعشي.

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾.

﴿وكذلك فتّنا﴾ ومثل ذلك الفتن العظيم فتّنا بعض الناس ببعض أي: ابتليناهم بهم، وذلك أنّ المشركين كانوا يقولون للمسلمين ﴿أهؤلاء﴾ الذين ﴿منّ الله عليهم من بيننا﴾ أي: أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء، إنكارًا لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونًا عليهم من بينهم بالخير ونحوه ﴿ألقى الذكر عليه من بيننا﴾[5] ﴿لو كان خيرًا ما سبقونا إليه﴾[6] ومعنى فتّناهم ليقولوا ذلك: خذلناهم فافتتنوا حتى كان افتتانهم سببًا لهذا القول؛ لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون ﴿أليس الله باعلم بالشاكرين﴾ أي: الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان، وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق.

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ

= عنده سواء لا شفيع لهم، إذ لا يخاف، إلا أصحاب الكبائر غير التائبين، أو الكفار والكل عنده سواء لا شفيع لهم، وحيث أثبتت الشفاعة جعلها خاصة بزيادة الثواب، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه، فهذا عنده لا يخاف من البعث؛ لأنه يستوجب الجنة، فمن ثمّ جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان غير خائف، فلا تتناوله الآية، وخائف فذاك إنما خاف؛ لأنه استوجب العقاب، فلا شفاعة تناله، وهذه من دقائقه الخفية، ومكامنه المزوية، فتفطن لها إن الله الموفق برحمته.

(1) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الزهد وقصر الأمل، (الحديث رقم: 10491).
(2) سورة الكهف، الآية: 28.
(3) سورة الشعراء، الآية: 113.
(4) سورة الأنعام، الآية: 164.
(5) سورة القمر، الآية: 25.
(6) سورة الأحقاف، الآية: 11.

سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾.

﴿فقل سلام عليكم﴾ إما أن يكون أمرًا بتبليغ سلام الله إليهم، وإما أن يكون أمرًا بأن يبدأهم باللام إكرامًا لهم وتطييبًا لقلوبهم، وكذلك قوله ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم. وقرئ: إنه فإنه بالكسر على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل ﴿انه من عمل منكم﴾ وبالفتح على الإبدال من الرحمة ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال أي: عمله وهو جاهل وفيه معنيان: أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة؛ لأنّ من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل لا من أهل الحكمة والتدبير ومنه قول الشاعر:

على أنها قالت عشية زرتها جهلت على عمد ولم تك جاهلا

والثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته، وقيل: إنها نزلت في عمر رضي الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة. وقرئ: ﴿ولتستبين﴾ بالتاء والياء مع رفع السبيل؛ لأنها تذكر وتؤنث، وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل يقال: استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده، ولتستوضح سبيلهم، فنعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۗ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾.

﴿نهيت﴾ صرفت وزجرت بما ركب في من أدلة العقل وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون ﴿من دون الله﴾ وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة ﴿قل لا اتبع أهواءكم﴾ أي: لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل ﴿قد ضللت إذًا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال، وما أنا من الهدى في شيء، يعني: أنكم كذلك، ولما نفى أن يكون الهوى متبعًا نبّه على ما يجب اتباعه بقوله: ﴿قل إني على بينة من ربي﴾ ومعنى قوله: ﴿إني على بينة من ربي وكذبتم به﴾ إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق ﴿وكذبتم به﴾ أنتم حيث أشركتم به غيره، يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه إذا كان ثابتًا عندك بدليل. ثم عقبه بما دلّ على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا بالعذاب المستأصل فقال ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾ يعني: العذاب الذي استعجلوه في قولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة من السماء﴾[1] ﴿إن الحكم إلاّ لله﴾ في تأخير عذابكم ﴿يقض الحق﴾ أي: القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل في أقسامه ﴿وهو خير الفاصلين﴾ أي: القاضين، وقرئ: يقص الحق أي: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره.

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾.

﴿لو أن عندي﴾ أي: في قدرتي وإمكاني ﴿ما تستعجلون به﴾ من العذاب ﴿لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضبًا لربي، وامتعاضًا من تكذيبكم به، ولتخلصت منكم سريعًا ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم، وقيل: ﴿على بينة من ربي﴾ على حجة من جهة ربي وهي القرآن وكذبتم به أي: بالبينة، وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن.

فإن قُلْتَ: بم انتصب الحق؟ **قُلْتُ:** بأنه صفة لمصدر يقضي أي: يقضي القضاء الحق، ويجوز أن يكون مفعولاً به من قولهم: قضى الدرع إذا صنعها أي: يصنع الحق ويدبره، وفي قراءة عبد الله يقضي بالحق.

فإن قُلْتَ: لم أسقطت الياء في الخط؟ **قُلْتُ:** اتباعًا للخط اللفظ وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين.

❁ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾.

جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة؛ لأنّ المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال، ومن علم مفاتحها وكيف تفتح توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها فهو المتوصل إلى ما في المخازن[2]، والمفاتح جمع مفتح وهو:

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 32.

(2) قال أحمد: إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سديداً، فإنه يوهم تجدّد وصول بعد تباعد، إذ قول القائل توصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد، والله تعالى مقدّس عن ذلك والغائب= = كالحاضر في علمه والعلم بالكائن: هو العلم بما سيكون لا يتغاير، ولا يختلف، وليس لنا أن نطلق مثل هذا الإطلاق، إلا عن ثبت، والله الموفق.

المفتاح، وقرئ: مفاتيح وقيل: هي جمع مفتح بفتح الميم وهو: المخزن ولا حبة ولا رطب ولا يابس عطف على ورقة وداخل في حكمها، كأنه قيل وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا بعلمه، وقوله: ﴿إلا في كتاب مبين﴾ كالتكرير لقوله: ﴿إلا يعلمها﴾؛ لأنّ معنى إلا يعلمها ومعنى: إلا في كتاب مبين واحد، والكتاب المبين علم الله تعالى أو اللوح. وقرئ: ولا حبة ولا رطب ولا يابس بالرفع، وفيه وجهان: أن يكون عطفًا على محل من ورقة، وأن يكون رفعًا على الابتداء وخبره إلا في كتاب مبين، كقولك لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار[1].

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾.

﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الخطاب للكفرة أي: أنتم منسدحون الليل كله كالجيف ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ ما كسبتم من الآثام فيه ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم، من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ومن أجله كقولك: فيم دعوتني؟ فتقول في أمر كذا ﴿ليقضي أجل مسمى﴾ وهو: الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ وهو: المرجع إلى موقف الحساب ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ في ليلكم ونهاركم.

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾.

﴿حفظة﴾ ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون، وعن أبي حاتم السجستاني أنه كان يكتب عن الأصمعي كل شيء يلفظ به من فوائد العلم حتى قال فيه: أنت شبيه الحفظة تكتب لغط اللفظة، فقال أبو حاتم: وهذا أيضًا مما يكتب.

فإن قُلْتَ: الله تعالى غني بعلمه عن كتبة الملائكة فما فائدتها؟ قُلْتُ: فيها لطف للعباد؛ لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم، والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد من السوء ﴿توفته رسلنا﴾ أي: استوفت روحه، وهم ملك الموت وأعوانه، وعن مجاهد: جعلت الأرض له مثل الطست، يتناول من يتناوله، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين، وقرئ: توفاه، ويجوز أن يكون ماضيًا ومضارعًا بمعنى: تتوفاه و ﴿يفرطون﴾ بالتشديد والتخفيف فالتفريط التواني والتأخير عن الحد، والإفراط مجاوزة الحد أي: لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه.

ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾.

﴿ثم ردوا إلى الله﴾ أي: إلى حكمه وجزائه ﴿مولاهم﴾ مالكهم الذي يلي عليهم أمورهم ﴿الحق﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿ألا له الحكم﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لا يشغله حساب عن حساب، وقرئ: الحق بالنصب على المدح كقولك: الحمد لله الحق.

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿ظلمات البر والبحر﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما، يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب أي: اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ويجوز أن يراد: ما يشفون عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتها ﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول ﴿من هذه﴾ من هذه الظلمة الشديدة. وقرئ: ينجيكم بالتشديد والتخفيف وأنجانا وخفية بالضم والكسر.

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾.

﴿هو القادر﴾ هو الذي عرفتموه قادرًا وهو: الكامل القدرة ﴿عذابًا من فوقكم﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل: ﴿من فوقكم﴾ من قبل أكابركم وسلاطينكم، و ﴿من تحت أرجلكم﴾ من قبل سفلتكم وعبيدكم، وقيل: هو حبس المطر والنبات ﴿أو يلبسكم شيعًا﴾ أو يخلطكم فرقًا مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام، ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال من قوله:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي

وعن رسول الله ﷺ: سألت الله أن لا يبعث على أمّتي

---

(1) قال أحمد: وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده؛ لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سلف الإيجاب المقصود للعلم في قوله، إلا يعلمها وكانت هذه المعطوفات داخلة في إيجاب العلم، وهو المقصود، وطالت، وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف كان ذلك = جديراً بتجديد العهد بالمقصود، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة في القرآن التجديد بعبارة أخرى، ليتلقاها السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير، وهذا السر إنما ينقب عنه المسيطر في علم البيان، ونكت اللبان، والله الموفق.

عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني، وأخبرني جبريل: أنّ فناء أمتي بالسيف، وعن جابر بن عبد الله لما نزل ﴿من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، فلما نزل ﴿أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا﴾ قال: هاتان أهون[1]. ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾.

والضمير في قوله: ﴿وكذب به﴾ راجع إلى العذاب ﴿هو الحق﴾ أي: لا بدّ أن ينزل بهم ﴿قل لست عليكم بوكيل﴾ بحفيظ وكل إلى أمركم أمنعكم من التكذيب إجبارًا إنما أنا منذر.

لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿لكل نبأ﴾ لكل شيء ينبأ به يعني: إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به ﴿مستقر﴾ وقت استقرار وحصول لا بدّ منه، وقيل الضمير في به للقرآن.

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾.

﴿يخوضون في آياتنا﴾ في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿فأعرض عنهم﴾ فلا تجالسهم وقم عنهم ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ فلا بأس أن تجالسهم حينئذٍ ﴿وإمّا ينسينك الشيطان﴾ وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم ﴿فلا تقعد﴾ معهم ﴿بعد الذكرى﴾ بعد أن تذكر النهي. وقرئ: ينسينك بالتشديد، ويجوز أن يراد، وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين؛ لأنها مما تنكره العقول، فلا تقعد بعد الذكرى، بعد أن نكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم[2].

وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾.

﴿وما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء﴾ وما يلزم المتّقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿ولكن﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ذكرى﴾ إذا سمعوهم يخوضون بالقيام عنهم وإظهار الكراهة لهم وموعظتهم ﴿لعلهم يتقون﴾ لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم، ويجوز أن يكون الضمير للذين يتّقون أي: ينكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها، وروي أنّ المسلمين قالوا: لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف، فرخّص لهم.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿ذكرى﴾؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون نصبًا على ولكن يذكرونهم ذكرى أي: تذكيرًا ورفعًا على ولكن عليهم ذكرى، ولا يجوز أن يكون عطفًا على محل من شيء كقولك: ما في الدار من أحد ولكن زيد؛ لأنّ قوله من حسابهم يأبى ذلك.

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾.

﴿واتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا﴾ أي: دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعبًا ولهوًا، وذلك أنّ عبادة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب، وغير ذلك من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة، ومن جنس الهزل دون الجد، واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعبًا ولهوًا حيث سخروا به واستهزؤا، وقيل: جعل الله لكل قوم عيدًا يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله، والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعبًا ولهوًا غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله. ومعنى ذرهم: أعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا تشغل قلبك بهم ﴿وذكر به﴾ أي: بالقرآن ﴿أن تبسل نفس﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها وأصل الإبسال المنع؛ لأنّ المسلم إليه يمنع المسلم قال:

وأبسالي بنيّ بغير جرم ... بعوناه ولا بدم مراق

ومنه: هذا عليك بسل أي حرام محظور، والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه أو لأنه شديد البسور، يقال: بسر الرجل إذا اشتدّ عبوسه فإذا زاد قالوا: بسل، والعابس: منقبض الوجه ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾[3] وإن تفد كل فداء، والعدل الفدية؛ لأن الفادي يعدل

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير من سورة الأنعام باب: «قل هو القادر على أن يبعث...» (الحديث رقم: 4628).

(2) قال أحمد: وهذا التأويل الثاني يروم تنزيله على قاعدة التحسين، والتقبيح بالعقل، وأنه كاف وإن لم يرد شرع في التحريم، وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل، كمجالسته المستهزئين، فإنّ قبحها بيّن بالعقل، فهو مستقل بتحريمها وحيث ورد الشرع بذلك، فهو كاشف لحكمها ومبنية عليه لا منشئ فيها حكماً، وقد علمت= = فساد هذه القاعدة ومخالفتها للعقائد السنية، على أنّ الآية تنبو عنه فإنه لو كان النسيان المراد ههنا: نسيان الحكم الذي يدل عليه العقل قبل ورود هذا النهي، لما عبر بالمستقبل في قوله: ﴿وإمّا ينسينك﴾ فأمّا وقد ورد بصيغة الاستقبال، فلا وجه لحمله على الماضي، والله الموفق.

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من عيون إعرابه، ونكت إغرابه التي طالما ذهل عنها غيره، وهو من جنس تدقيقه في منع عود الضمير من=

المفدي بمثله، وكل عدل: نصب على المصدر وفاعل يؤخذ قوله منها لا ضمير العدل؛ لأنّ العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ، وأما في قوله تعالى: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾[1] فمعنى المفدى به فصحّ إسناده إليه ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتخذين دينهم لعبًا ولهوًا. [2]قيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان.

قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾.

﴿قل أندعوا﴾ أنعبد ﴿من دون الله﴾ الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا ﴿ونرد على أعقابنا﴾ راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام ﴿كالذي استهوته الشياطين﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان ﴿في الأرض﴾ المهمة ﴿حيران﴾ تائهًا ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع ﴿له﴾ أي: لهذا المستهوي ﴿أصحاب﴾ رفقة ﴿يدعونه إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستوي، أو سمي الطريق المستقيم بالهدى. قولون له ﴿ائتنا﴾ وقد اعتسف المهمة تابعًا للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم، وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقده أنّ الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه كقوله: ﴿كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ﴾[3] فشبّه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم ﴿قل إنّ هدى الله﴾ وهو الإسلام ﴿هو الهدى﴾ وحده ما وراءه ضلال وغي ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا﴾[4] فماذا بعد الحق إلا الضلال.

فإن قُلْتَ: فما محل الكاف في قوله: ﴿كالذي استهوته﴾؟ **قُلْتُ:** النصب على الحال من الضمير في ﴿نرد على أعقابنا﴾ أي: أننكص مشبهين من استهوته الشياطين.

فإن قُلْتَ: ما معنى استهوته؟ **قُلْتُ:** هو: استفعال من هوى في الأرض إذا ذهب فيها، كأن معناه: طلبت هويه وحرصت عليه.

فإن قُلْتَ: ما محل ﴿أمرنا﴾؟ **قُلْتُ:** النصب عطفًا على محل قوله: ﴿إن هدى الله هو الهدى﴾ على أنهما مقولان، كأنه قيل قل هذا القول وقل ﴿أمرنا لنسلم﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى اللام في ﴿لنسلم﴾؟ **قُلْتُ:** هي: تعليل للأمر بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم.

فإن قُلْتَ[5]: فإذا كان هذا واردًا في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿قل أتدعوا﴾؟ **قُلْتُ:** للاتحاد الذي كان بين رسول الله ﷺ والمؤمنين، خصوصاً بينه وبين الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

فإن قُلْتَ[6]: علام عطف قوله: ﴿وأن أقيموا﴾؟ **قُلْتُ:**

= قوله فنفخ فيها إلى الهيئة، من قوله كهيئة الطير مع أنه السابق إلى الذهن، وإنما حمله على القول بأن العدل ههنا: مصدران الفعل تعدى إليه بغير واسطة، ولو كان المراد: المفدي، لكان مفعولاً به، فلم يتعد إليه الفعل، إلا بالباء، وكان وجه الكلام، وإن تعدل بكل عدل فلما عدل عنه علم أنه مصدر، والله أعلم.

(1) سورة البقرة، الآية: 48.

(2) قال أحمد: ومن أنكر الجن، واستيلاءها على بعض الأناسي بقدرة الله تعالى، حتى يحدث من ذلك الخبطة، والصرع، ونحوهما، فهو ممن استهوته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي حيران له أصحاب من الموحدين، يدعونه إلى الهدي الشرعي ائتنا، وهو راكب في ضلالة التعاسيف، لا يلوي عليهم ولا يلتفت إليهم، فمرة يقول: إنّ الوالد في الشرع من ذلك تخييل كما تقدم في سورة البقرة، ومرّة يعده من زعمات العرب، وزخارفها، وقد أسلفنا ذلك في البقرة، وآل عمران قولاً شافياً بليغاً، فجدد به عهداً، والله الموفق.

(3) سورة البقرة، الآية: 275.

(4) سورة آل عمران، الآية: 85.

(5) قال أحمد: هو مبني على أنّ الأمر هو: الإرادة، أو من لوازمه إرادة المأمور به، وهذا الإعراب منزل على معتقده هذا، وأما أهل السنة، فكما علمت أنّ الأمر عندهم غير الإرادة، ولا يستلزمها وقولهم في هذه اللام، كقولهم في وما خلقت الجن والإنس، إلا ليعبدون من نفي كونها تعليلاً، والوجه في ذلك أنهم لما أوضحت لهم الآيات البينات، وأزيحت عنهم العلل، وتمكنوا من الإسلام والعبادة امتثالاً للأمر، جعلوا بمثابة من أريد منهم ذلك تمكيناً، لحضهم على = الامتثال، ولقطع أعذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك، ومن شأن المريد للشيء، إذا كان قادراً على حصوله أن يزيح العلل، ويرفع الموانع، وكذلك فعل مع المكلفين، وإن لم تكن الطاعة مرادة من جميعهم، وأما إذا كانت اللام هي التي تصحب المصدر، كما يقول الزجاج تقديره الأمر للإسلام، وكذلك يقول في قوله تعالى: يريد الله، ليبيّن لكم الإرادة للبيان، وهي: اللام التي تصحب المفعول عند تقدمه في قولك، لزيد ضربت فهي على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل، وقد قيل إنها بمعنى: أن كأنه قيل، وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل، وكي، ولام كي في أمرت، وأردت خاصة، بمعنى: أن لا على بابها من التعليل والغرض من دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوثق، وأبلغ إذ لا يتعلق هذان المعنيان أعني الأمر، والإرادة، إلا بمستقبل، وقد جمع بين الثلاثة اللام وكي وأن في قوله أردت لكيما أن يطير «البيت»، وهذا الوجه أيضاً سالم المعنى من الخلل الذي يعتقده الزمخشري، والمحافظة على العقيدة، وقد وجدنا السبيل إلى ذلك بحمد الله متعينة، والله الموفق.

(6) قال أحمد: وهذا مصداق للقول بأن لنسلم، معناه: أن تسلم وأن اللام فيه رديفة أن لا يراد عطفها عليها، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء الله، وفي ورود أقيموا الصلاة محكياً بصيغته، وورود نسلم محكياً بمعناه، إذ الأصل المطابق، لأقيموا أسلموا مصداق لما قدمته عند قوله تعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ وبيّنت ثم أنّ ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكى قول الله تعالى: ﴿اعبدوا الله ربكم ورب عيسى﴾ بمعناه، فقال اعبدوا الله ربي وربكم، فهذا مثله في حكاية =

على موضع لنسلم كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا ويجوز أن يكون التقدير وأمرنا لأن نسلم ولأن أقيموا أي: للإسلام ولإقامة الصلاة.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾.

﴿قوله الحق﴾ مبتدأ ويوم يقول خبره مقدّمًا عليه وانتصابه بمعنى: الاستقراء، كقولك: يوم الجمعة القتال، واليوم بمعنى: الحين، والمعنى: أنه خلق السمٰوات والأرض قائمًا بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة أي: لا يكون شيئًا من السمٰوات والأرض وسائر المكونات إلاّ عن حكمة وصواب و ﴿يوم ينفخ﴾ ظرف لقوله ﴿وله الملك﴾ كقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾[1] ويجوز أن يكون قوله الحق فاعل يكون على معنى وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه الحق كن فيكون قوله الحق، وانتصاب اليوم لمحذوف دلّ عليه قوله بالحق كأنه قيل وحين يكون ويقدر يقوم بالحق ﴿عالم الغيب﴾ هو عالم الغيب، وارتفاعه على المدح.

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾.

﴿آزر﴾ اسم أبي إبراهيم عليه السلام، وفي كتب التواريخ أنّ اسمه: بالسريانية تارح، والأقرب أن يكون وزن آزر: فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لأبيه، وقرئ: آزر بالضم على النداء، وقيل: آزر اسم صنم فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتي كان يشبب بهن فقيل ابن قيس الرقيات، وفي شعر بعض المحدّثين.

أدعى بأسماء نبزا في قبائلها ... كان أسماء أضحت بعد أسمائي

أو أريد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ: آزر تتخذ أصنامًا آلهة، بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاي ساكنة وراء منصوبة منونة، وهو اسم صنم ومعناه: أتعبد آزر على الإنكار، ثم قال: تتخذ أصنامًا آلهة تثبيتًا لذلك وتقريرًا، وهو داخل في حكم الإنكار؛ لأنه كالبيان له[2] ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ عطف على ﴿قال إبراهيم لأبيه﴾ وقوله: ﴿وكذلك نرى إبراهيم﴾ جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره. ﴿ملكوت السمٰوات والأرض﴾ يعني: الربوبية والإلٰهية، ونوفقه لمعرفتها ونرشده، بما شرحنا صدره وسددنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال. ﴿وليكون من الموقنين﴾ فعلنا ذلك، ونرى حكاية حال ماضية،[3] وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئًا منها لا يصح أن يكون إلٰهًا لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثًا أحدثها، وصانعًا صنعها، ومدبر دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

﴿هذا ربي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأنّ ذلك ادعى إلى الحق، وأنجى من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ﴿لا أحب الآفلين﴾ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين على حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام ﴿بازغًا﴾ مبتدئًا في الطلوع ﴿لئن لم يهدني ربي﴾ تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلٰهًا وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه ﴿هذا أكبر﴾ من باب استعمال النصفة أيضًا مع خصومه ﴿إني بريء مما تشركون﴾ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض﴾ أي: الذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها، وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاه الله، والأوّل أظهر لقوله: ﴿لئن لم يهدني

= المعنى دون اللفظ، والله أعلم.

(1) سورة غافر، الآية: 16.

(2) قال أحمد: وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه، بما سياتي من استدلال إبراهيم عليه السلام، وأنه تبصير له من الله تعالى، وتسديد.

(3) قال أحمد: والتعريض بضلالهم ثانياً أصرح، وأقوى من قوله أوّلاً، لا أحب الآفلين، وإنما ترقى إلى ذلك؛ لأنّ الخصوم قد أقامت عليه= = الاستدلال الأوّل حجة، فأنسوا بالقدح في معتقدهم، ولو قيل هذا في الأوّل، فلعلهم كانوا ينفرون، ولا يصغون إلى الاستدلال، فما عرض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود، واستماعهم إلى آخره، والدليل على ذلك: أنه ترقى في التوبة الثالثة إلى التصريح، بالبراءة منهم، والتقريع، بأنهم على شرك حين قيام الحجة عليهم، وتبلج الحق، وبلغ من الظهور غاية المقصود، والله أعلم.

ربي﴾ وقوله: ﴿يا قوم إني بريء مما تشركون﴾[1].

فإن قُلْتَ[2]: لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قُلْتُ: الاحتجاج بالأفول أظهر؛ لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب.

فإن قُلْتَ: ما وجه التنكير في قوله ﴿هذا ربي﴾ والإشارة للشمس؟ قُلْتُ: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم: ما جاءت حاجتك؟ ومن كانت أمك؟ و ﴿لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا﴾[3] وكان اختيار هذه الطريقة واجبًا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث، ألا تراهم قالوا في صفة الله علاّم ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احترازًا من علامة التأنيث. وقرئ: نري إبراهيم ملكون السمٰوات والأرض بالتاء، ورفع الملكوت ومعناه: نبصره دلائل الربوبية.

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله﴾ وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك ﴿وقد هدان﴾ يعني: إلى التوحيد ﴿ولا أخاف ما تشركون به﴾ وقد خوّفوه أنّ معبوداتهم تصيبه بسوء[4] ﴿إلا أن يشاء ربي شيئًا﴾ إلا وقت مشيئة ربي شيئًا يخاف، فحذف الوقت يعني: لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ذنبًا أستوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجمني بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجعلها قادرة على مضرتي ﴿وسع ربي كل شيء علمًا﴾ أي: ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها ﴿أفلا تتذكرون﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿وكيف أخاف﴾ لتخويفكم شيئًا مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه ﴿و﴾ أنتم ﴿لا تخافون﴾ ما يتعلق به كل مخوف، وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه ﴿سلطانًا﴾ أي: حجة؛ لأنّ الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال:[5] وما لكم تنكرون علي الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف. ولم يقل فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم احترازًا من تزكيته نفسه فعدل عنه إلى قوله: ﴿فأي الفريقين﴾ يعني: فريقي المشركين والموحدين. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله[6]: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾.

﴿وتلك﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله: ﴿فلما جنّ عليه الليل﴾ إلى قوله: ﴿وهم مهتدون﴾ ومعنى ﴿آتيناها﴾ أرشدناه إليها ووفقناه لها ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ يعني: في العلم

---

(1) قال أحمد: وصدق الزمخشري، بل ذلك متعين، وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام، فيلتمسون منه الشفاعة، فيقول نفسي نفسي، لا أسأل أحداً غيري، ويذكر كذباته الثلاث، ويقول لست لها يريد قوله، لسارة هي أختي وإنما عنى في الإسلام، وقوله: إنه سقيم، وإنما عنى همه بقومه، وشركهم، والمؤمن يسقمه ذلك وقوله بل فعله كبيرهم، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض، فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه، فلو كان الأمر على ما يقال من أنّ هذا الكلام محكي عنه، على أنه نظر لنفسه، لكان أولى أن بعده، وأعظم مما ذكرناه؛ لأن حينئذ يكون شكاً بل جزماً على أنّ الصحيح، أنّ الأنبياء قبل النبوّة معصومون من ذلك.

(2) قال أحمد: وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسناته.

(3) سورة الأنعام، الآية: 23.

(4) قال أحمد: هو بمعنى يجعلها قادرة على أنّ المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة، لمن يريد بناء على قاعدته، وقد علمت أنّ عقيدة أهل السنة أنّ ذلك لا يجوز عقلاً، أن يخلق غير الله، ولا يقدر قدرة مؤثرة في المقدور، إلا هو وإن كان الزمخشري لم = يصرح ههنا من عقيدته، فإنما يعني حيث يصرح، أو يكني ما يلائمها ويتنزل عليها وغاية خوف إبراهيم منها المعلق على مشيئة الله، لذلك خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى، لا بها وكأنه في الحقيقة لم يخف، إلا من الله؛ لأنّ الخوف الذي أثبته منها معلق بمشيئة الله، وقدرته، وهو كلا خوف منها، والله أعلم.

(5) قال أحمد: ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك، ليعم بالأمن كل موحد بالخوف كل مشرك، ويندرج هو في حكم الموحدين، وقومه في حكم المشركين، وأحسن الجواب ما أفاد وزاد (قال: والمراد بقوله ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أي: لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس).

(6) قال أحمد: وقد ورد أنّ الآية لما نزلت عظمت على الصحابة، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه، فقال عليه الصلاة والسلام: إنما هو الظلم في قول لقمان، إنّ الشرك لظلم عظيم، وإنما هو يروم بذلك تنزيله على معتقده في وجوب وعيد العصاة، وأنهم لا حظ لهم في الأمن، كالكفار ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمن بالجامعين الأمرين الإيمان، والبراءة من المعاصي، ونحن نسلم ذلك، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة، هو الخوف اللاحق للكفار؛ لأنّ العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت، وهم آمنون من الخلود، وأمّا الكفار، فغير آمنين بوجه ما، والله الموفق.

والحكمة، وقرئ*: بالتنوين.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾.

﴿ومن ذرّيته﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم و **﴿داود﴾** عطف على **﴿نوحًا﴾** أي: وهدينا داود **﴿ومن آبائهم﴾** في موضع النصب عطفًا على **﴿كلا﴾** بمعنى: وفضلنا بعض آبائهم **﴿ولو أشركوا﴾** مع فضلهم وتقدّمهم وما رفع لهم من الدرجات لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم كما قال تعالى وتقدّس **﴿لئن أشركت ليحبطنّ عملك﴾**[1] **﴿آتيناهم الكتاب﴾** يريد الجنس **﴿فإن يكفر بها﴾** بالكتاب والحكمة والنبوّة أو بالنبوّة **﴿هؤلاء﴾** يعني: أهل مكة **﴿قومًا﴾** هم: الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله: **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾** وبدليل وصل قوله: **﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾** بما قبله، وقيل: هم أصحاب النبي ﷺ وكل من آمن به، وقيل: كل مؤمن من بني آدم، وقيل: الملائكة، وادّعى الأنصار أنها لهم، وعن مجاهد: هم الفرس، ومعنى توكيلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها، كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه. والباء في بها صلة كافرين. وفي بكافرين تأكيد النفي. **﴿فبهداهم اقتده﴾** فاختص هداهم بالاقتداء، ولا تقتد إلا بهم، وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهم: طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة وهي هدى ما لم تنسخ فإذا نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدًا، والهاء في اقتده للوقف تسقط في الدرج واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾.

﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[2] أوما عرفوه حقّ معرفته في سخطه على الكافرين وشدّة بطشه بهم، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوّة. والقائلون: هم اليهود بدليل قراءة من قرأ: تجعلونه بالتاء وكذلك: تبدونها وتخفون، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، فألزموا ما لا بدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام[3]، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعي عليهم سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل: **﴿جاء به موسى﴾** وهو نور وهدى للناس حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرّقة ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء، وروي أنّ مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أنّ الله يبغض الحبر السمين، فأنت الحبر السمين، قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود، فضحك القوم، فغضب ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له قومه: ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك؟ قال: إنه أغضبني، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف[4]، وقيل: القائلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة، وكانوا يقولون: لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم **﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾** الخطاب لليهود أي: علمتم على لسان محمد ﷺ مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم وأنتم حملة التوراة، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم، إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، وقيل: الخطاب لمن آمن من قريش كقوله تعالى: **﴿لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم﴾**[5] **﴿قل الله﴾** أي: أنزله الله، فإنهم لا يقدرون أن يناكروك **﴿ثم ذرهم في خوضهم﴾** في باطلهم الذي يخوضون فيه، ولا عليك بعد إلزام الحجة. ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه: إنما أنت لاعب و**﴿يلعبون﴾** حال من ذرهم أو من خوضهم، ويجوز أن يكون في خوضهم حالاً من يلعبون، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم.

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾.

﴿مبارك﴾ كثير المنافع والفوائد **﴿ولتنذر﴾** معطوف

---

(1) سورة الزمر، الآية: 65.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 107.

(3) قال أحمد: وهذا أيضاً من دقة نظره في الكتاب العزيز والتعمق في = آثار معادنه، وإبراز محاسنه.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص 125.

(5) سورة يس، الآية: 6.

على ما دلّ عليه صفة الكتاب كأنه قيل: أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدّمه من الكتب والإنذار، وقرئ*: ولينذر بالياء والتاء. وسميت مكة ﴿أم القرى﴾ لأنها مكان أول بيت وضع للناس؛ ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم؛ ولأنها أعظم القرى شأنًا، ولبعض المجاورين.

فمن يلق في بعض القريات رحله فام القرى ملقى رحالي ومنتابي

﴿والذين يؤمنون بالآخرة﴾ يصدّقون بالعاقبة ويخافونها ﴿يؤمنون﴾ بهذا الكتاب وذلك أنّ أصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخصّ الصلاة، لأنها عماد الدين، ومن حافظ عليها كانت لطفًا في المحافظة على أخواتها.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾.

﴿افترى على الله كذبًا﴾ فزعم أنّ الله بعثه نبيًا ﴿وقال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء﴾ وهو مسيلمة الحنفي الكذاب، أو كذاب صنعاء الأسود العنسي، وعن النبي ﷺ: رأيت فيما يرى النائم كان في يدي سوارين من ذهب، فكبرا علي وأهماني، فأوحى الله إلي أن أنفخهما فنفختهما فطارا عني، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب اليمامة مسيلمة، وكذاب صنعاء الأسود العنسي[1] ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ هو: عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي، كان يكتب لرسول الله ﷺ، فكان إذا أملى عليه سميعًا عليمًا، كتب هو: عليمًا حكيمًا، وإذا قال: عليمًا حكيمًا، كتب: غفورًا رحيمًا، فلما نزلت ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[2] إلى آخر الآية، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتبها فكذلك نزلت، فشك عبد الله، وقال: لئن كان محمدًا صادقًا لقد أوحي إلي مثل ما أوحي إليه، ولئن كان كاذبًا فلقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بمكة ثم رجع مسلمًا[3] قبل فتح مكة. وقيل: هو النضر بن الحرث والمستهزؤن ﴿ولو ترى﴾ جوابه محذوف أي: لرأيت أمرًا عظيمًا ﴿إذ الظالمون﴾ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة فتكون اللام للعهد، ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله. و ﴿غمرات الموت﴾ شدائده وسكراته، وأصل[4] الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدّة الغالبة ﴿باسطوا أيديهم﴾ يبسطون[5] إليهم أيديهم يقولون: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق، والإلحاح والتشديد في الإرهاق من غير تنفيس وإمهال، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له: اخرج إليّ مالي عليك الساعة ولا أريم مكاني حتى أنزعه من أحداقك. وقيل: معناه باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ خلصوها من أيدينا أي: لا تقدرون على الخلاص ﴿اليوم تجزون﴾ يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدّة النزع وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاول الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. و ﴿الهون﴾ الهوان الشديد، وإضافة العذاب إليه كقولك: رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه ﴿عن آياته تستكبرون﴾ فلا تؤمنون بها.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾.

﴿فرادى﴾ منفردين عن أموالكم وأولادكم، وما حرصتم عليه وآثرتموه من دنياكم، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم شركاء لله ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد ﴿وتركتم ما خوّلناكم﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة ﴿وراء ظهوركم﴾ لم ينفعكم، ولم تحتملوا منه نقيرًا، ولا قدمتموه لأنفسكم ﴿فيكم شركاء﴾ في استعبادكم؛ لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفي استعبادهم. وقرئ*: فرادى بالتنوين، وفراد مثل ثلاث، وفردى نحو سكرى.

فإن قلت: ﴿كما خلقناكم﴾ في أي محل هو؟ **قلت:** في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا أي: مجيئًا مثل خلقنا لكم ﴿تقطع بينكم﴾ وقع التقطع بينكم، كما تقول جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل، ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف كما تقول: قوتل خلفكم وأمامكم، وفي قراءة عبد الله: لقد تقطع ما بينكم.

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾.

﴿فالق الحب والنوى﴾[6] بالنبات والشجر، وعن

( ) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: النفخ في المنام، (الحديث رقم: 7027) وفي كتاب: الرؤيا، باب: رؤيا النبي ﷺ (الحديث رقم: 2274).

( ) سورة المؤمنون، الآية: 12.

( ) كشف الأستار، كتاب: التفسير، باب: سورة الأنعام، (الحديث رقم: 2210).

(4) قال أحمد: هو يجعله من مجاز التمثيل، ولا حاجة إلى ذلك والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية، وإذا أمكن البقاء على الحقيقة، فلا معدل عنها.

(5) قال أحمد: ومثله ويبسطوا إليكم أيديهم، وألسنتهم بالسوء.

(6) قال أحمد رحمه الله: وقد ورد جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله ﴿يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض=

مجاهد: أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة ﴿يخرج الحي من الميت﴾ أي: الحيوان والنامي من النطف والبيض والحب والنوى ﴿ومخرج﴾ هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامي.

فإن قُلْتَ: كيف قال: ﴿مخرج الميت من الحي﴾ بلفظ اسم الفاعل بعد قوله: ﴿يخرج الحي من الميت﴾ **قُلْتُ:** عطفه على فالق الحب والنوى لا على الفعل، و ﴿يخرج الحي من الميت﴾ موقعه موقع الجملة المبينة لقوله: ﴿فالق الحب والنوى﴾ لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت؛ لأنّ النامي في حكم الحيوان؛ ألا ترى إلى قوله ﴿يحيي الأرض بعد موتها﴾[1] ﴿ذلكم الله﴾ أي: ذلكم المحيي والمميت هو: الله الذي تحق له الربوبية ﴿فأنى تؤفكون﴾ فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره.

فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾.

﴿الإصباح﴾ مصدر سمي به الصبح، وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح وأنشد قوله:

أفنى رياحًا وبني رياح ... تناسخ الإمساء والإصباح

بالكسر والفتح مصدرين وجمع مساء وصبح.

فإن قُلْتَ[2]: فما معنى فلق الصبح والظلمة هي التي تنفلق عن الصبح؟ كما قال:

تردت به ثم انفرى عن أديمها ... تفري ليل عن بياض نهار

فإن قُلْتَ: فيه وجهان: أحدهما: بأن يراد فالق ظلمة الإصباح وهي الغبش في آخر الليل ومنقضاه الذي يلي الصبح، والثاني: أن يراد فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره، وقالوا: انشق عمود الفجر، وانصدع الفجر، وسموا الفجر فلقًا بمعنى: مفلوق، وقال الطائي:

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه ... وأوّل الغيث قطر ثم ينسكب

وقرئ*: فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا، بالنصب على المدح، وقرأ النخعي: فلق الإصباح وجعل الليل. السكن: ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسًا به واستراوحًا إليه من زوج أو حبيب، ومنه قيل للنار: سكن لأنه يستأنس بها، ألا تراهم سموها: المؤنسة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه، ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكونًا فيه من قوله: ﴿لتسكنوا فيه﴾[3] ﴿والشمس والقمر﴾ قرئا: بالحركات الثلاث، فالنصب على إضمار فعل دل عليه جاعل الليل أي: وجعل الشمس والقمر حسبانًا، أو يعطفان على محل الليل.

فإن قُلْتَ: كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية؛ لأنّ اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضي ولا تقول: زيد ضارب عمرًا أمس؟ **قُلْتُ:** ما هو في معنى المضي وإنما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة، وكذلك فالق الحب وفالق الإصباح، كما تقول: الله قادر عالم فلا تقصد زمانًا دون زمان، والجر عطف على لفظ الليل، والرفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسبانًا أو محسوبان حسبانًا، ومعنى جعل الشمس والقمر حسبانًا جعلهما علمي حسبان؛ لأنّ حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما، والحسبان بالضم مصدر حسب، كما أنّ الحسبان: الكسر مصدر حسب، ونظيره الكفران والشكران ﴿ذلك﴾ إشارة إلى جعلهما حسبانًا أي: ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿تقدير العزيز﴾ الذي قهرهما وسخرهما ﴿العليم﴾ بتدبيرهما وتدويرهما ﴿في ظلمات البر والبحر﴾ في ظلمات الليل بالبر والبحر، وأضافها إليهما لملابستها لهما، أو شبه

= بعد موتها، وكذلك تخرجون﴾ وقوله: ﴿أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي﴾، فعطف أحد القسمين على الآخر كثيراً دليل على أنهما توأمان مقترنان، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه وروده إلى فالق الحب، والنوى، فالوجه، والله أعلم أن يقال: كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله: ﴿فالق الحب وفالق الإصباح وجاعل الليل ومخرج الحيّ من الميت﴾ إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده وهو قوله: ﴿يخرج الحيّ من الميت﴾ إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل، والماضي، وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾، فتصبح الأرض مخضرة، فعدل عن الماضي المطابق، لقوله أنزل لهذا المعنى، ومنه ما في قوله:

إني قد ألقيت الغول تسعى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فآخذه فاضربه فخرت ... صريعاً لليدين وللجران

= فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن السامع، ومنه إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي، والإشراق، والطير محشورة، فعدل عن مسبحات، وإن كان مطابقاً لمحشورة بهذا السبب، والله أعلم، ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما تكون العناية به أقوى، ولا شك أنّ إخراج الحيّ من الميت أشهر في القدرة من عكسه، وهو أيضاً أوّل الحالين والنظر أوّل ما يبدأ فيه ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحيّ ناشئ عنه، فكان الأوّل جديراً بالتصدير والتأكيد في النفس، ولذلك هو مقدم أبداً على القسم الآخر في النكر على حسب ترتيبهما في الواقع وسهل عطف الاسم على الفعل، وحسنه أنّ اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع، فكل واحد منهما يقدر بالآخر، فلا جناح في عطفه عليه، والله أعلم.

(1) سورة الحديد، الآية: 17.

(2) قال أحمد:وقيل الخالق والفالق بمعنى، فيكون المراد: خالق الإصباح، والأظهر ما فسره عليه المصنف، والله أعلم.

= (3) سورة يونس، الآية: 67.

مشتبهات الطرق بالظلمات. من فتح قاف المستقر كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدرًا، ومن كسرها كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول، والمعنى: فلكم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها، أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع.

فإن قُلْتَ[1]: لم قيل ﴿**يعلمون**﴾ مع ذكر النجوم و﴿**يفقهون**﴾ مع ذكر إنشاء بني آدم؟ **قُلْتُ**: كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيرًا، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقًا له.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾.

﴿**فأخرجنا به**﴾ بالماء ﴿**نبات كل شيء**﴾ نبت كل صنف من أصناف النامي يعني: أنّ السبب واحد وهو: الماء، والمسببات صنوف مفتنة، كما قال: ﴿تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾[2] ﴿**فأخرجنا منه**﴾ من النبات ﴿**خضرًا**﴾ شيئًا غضًا أخضر، يقال: أخضر وخضر كأعور وعور وهو: ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿**نخرج منه**﴾ من الخضر ﴿**حبًا متراكبًا**﴾ وهو: السنبل و﴿**قنوان**﴾ رفع بالابتداء ﴿**ومن النخل**﴾ خبره، و﴿**من طلعها**﴾ بدل منه، كأنه قيل: وحاصلة من طلع النخل قنوان، ويجوز أن يكون الخبر محذوفًا لدلالة أخرجنا عليه تقديره: ومخرجة من طلع النخل قنوان، ومن قرأ: يخرج منه حب متراكب، كان قنوان عنده معطوفًا على حب، والقنوان جمع قنور، ونظيره صنو وصنوان، وقرئ* بضم القاف وبفتحها على أنه اسم جمع كركب؛ لأنّ فعلان ليس من زيادة التكسير ﴿**دانية**﴾ سهلة المجتنى معرضة للقاطف كالشيء الداني القريب المتناول؛ ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول، وقال الحسن: دانية قريب بعضها من بعض وقيل: ذكر القريبة وترك ذكر البعيدة لأنّ النعمة فيها أظهر، وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة كقوله ﴿سرابيل تقيكم الحرّ﴾[3] وقوله: ﴿**وجنات من أعناب**﴾ فيه وجهان: أحدهما: أي يراد وثم جنات من أعناب أي: مع النخل، والثاني: أن يعطف على قنوان معنى وحاصلة أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب أي: من نبات أعناب، وقرئ*: وجنات بالنصب عطفًا على نبات كل شيء، أي: وأخرجنا به جنات من أعناب وكذلك قوله ﴿**والزيتون والرمّان**﴾ والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص كقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾[4] لفضل هذين الصنفين ﴿**مشتبهًا وغير متشابه**﴾ يقال: اشتبه الشيئان وتشابها كقولك: استويا وتساويا والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرًا، وقرئ*: متشابهًا وغير متشابه وتقديره: والزيتون متشابهًا وغير متشابه والرمّان كذلك، كقوله: كنت منه ووالدي بريا، والمعنى: بعضه متشابهًا وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم وذلك دليل على التعمد دون الإهمال ﴿**انظروا إلى ثمره إذا أثمر**﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفًا لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئًا جامعًا لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّرة ومدبره وناقله من حال إلى حال، وقرئ*: وينعه بالضم يقال: ينعت الثمرة ينعًا

---

(1) قال أحمد: لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة، وما هذا الجواب إلا صناعي، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة كره فصلهما بفاصلتين متساويتين، في اللفظ، لما في ذلك من التكرار، فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسيناً للنظم، واتساقاً في البلاغة، ويحتمل وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله، ولا يعتبر بمخلوقاته، وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجة عن أنفس النظار، ومنافية لها إذ النجوم والنظر فيها، وعلم الحكمة الإلٰهية في تدبيره لها، أمر خارج عن نفس الناظر، لا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة، وتقلباتهم في أطوار مختلفة، وأحوال متغايرة، فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر، ولا يتجاوزها، فإذا تمهد ذلك، فجهل الإنسان بنفسه، وبأحواله، وعدم النظر فيها والتفكر أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه، كالنجوم والأفلاك، ومقادير سيرها، وتقلبها، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلاً، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم، ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة، فخص به أسوأ الفريقين حالاً، ويفقهون ههنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف، إذا فهمه، ولو أدنى فهم وليس من فقه بضم القاف؛ لأنّ= تلك درجة خالية ومعناه صار فقيهاً قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم، وفي حديث سلمان أنه قال، وقد سألته امرأة جاءته فقهت، أي: فهمت، كالمتعجب من فهم المرأة عنه، وإذا قيل: فلان لا يفقه شيئاً كان أذم في العرف من قولك: فلان لا يعلم شيئاً وكان معنى قولك لا يفقه شيئاً: ليست له أهلية الفهم، وإن فهم، وأمّا قولك لا يعلم شيئاً، فغايته نفي حصول العلم له، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم، والذي يدل على أنّ التارك للفكرة في نفسه أجهل، وأسوأ حالاً من التارك للفكرة في غير قوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم، أفلا تبصرون﴾ فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستانفاً، وقولنا في إدراج الكلام أنه نفى العلم عن أحد الفريقين، ونفى الفقه عن الآخر يعني بطريق التعريض حيث خص العلم بالآيات المفصلة، والتفقه فيها بقوم، فاشعر أن قوماً غيرهم لا علم عندهم ولا فقه، والله الموفق، فتأمل هذا الفصل، وإن طال بعض الطول، فالنظر في الحسن غير مملول.

(2) سورة الرعد، الآية: 4.

(3) سورة النحل، الآية: 81.

(4) سورة النساء، الآية: 162.

وينعًا، وقرأ ابن محيصن: وبانعه، وقرئ*: وثمره بالضم.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

أن جعلت ﴿لله شركاء﴾ مفعولي جعلوا نصبت الجنّ بدلاً من شركاء، وأن جعلت لله لغوًا كان شركاء الجنّ مفعولين قدّم ثانيهما على الأول.

فإن قُلْتَ: فما فائدة التقديم؟ **قُلْتُ:** فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكًا أو جنيًا أو إنسيًا أو غير ذلك، ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء. وقرئ*: الجنّ بالرفع كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن، وبالجرّ على الإضافة التي للتبيين، والمعنى: أشركوهم في عبادته؛ لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله، وقيل: هم الذين زعموا أنّ الله خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضارّ ﴿وخلقهم﴾ وخلق الجاعلين لله شركاء ومعناه: وعلموا أنّ الله خالقهم دون الجنّ، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق شريكًا للخالق، وقيل: الضمير للجنّ، وقرئ*: وخلقهم أي: اختلاقهم الإفك يعني: وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم ﴿والله أمرنا بها﴾[1] ﴿وخرقوا له﴾ وخلقوا له أي: افتعلوا له ﴿بنين وبنات﴾ وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير، وقول قريش في الملائكة. يقال: خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى، وسئل الحسن عنه فقال: كلمة عربية كانت العرب تقولها، كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم قد خرقها والله، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه أي: اشتقوا له بنين وبنات، وقرئ*: وخرّقوا بالتشديد للتكثير لقوله ﴿بنين وبنات﴾ وقرأ ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: وحرّفوا له بمعنى: وزوّروا له أولادًا؛ لأنّ المزوّر محرّف مغير للحق إلى الباطل ﴿بغير علم﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، ولكن رميًا بقول عن عمي وجهالة من غير فكر وروية.

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿بديع السموات﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها كقولك: فلان بديع الشعر أي بديع شعره، أو هو بديع في السموات والأرض كقولك: فلان ثبت الغدر أي: ثابت فيه، والمعنى: أنه عديم النظير والمثل فيها، وقيل البديع بمعنى: المبدع وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ وخبره ﴿أنى يكون له ولد﴾ أو فاعل تعالى، وقرئ*: بالجرّ ردًّا على قوله: ﴿وجعلوا الله﴾ أو على ﴿سبحانه﴾ وبالنصب على المدح وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه أحدها: أن مبتدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة؛ لأنّ الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسمًا حتى يكون والدًا، والثاني: أنّ الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد، وهو متعال عن مجانس، فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة، والثالث أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به، ومن كان بهذه الصفة كان غنيًا عن كل شيء، والولد إنما يطلبه المحتاج. وقرئ*: ولم يكن له صاحبة بالياء، وإنما جاز للفصل كقوله: لقد ولد الأخيطل أمّ سوء.

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدّم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي ﴿الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ أي: ذلكم الجامع لهذه الصفات ﴿فاعبدوه﴾ مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه، ثم قال ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ يعني: وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال رقيب على الأعمال.

لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾.

البصر[2] هو الجوهر اللطيف الذي ركبه الله في حاسة النظر به تدرك المبصرات فالمعنى: أنّ الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصرًا في ذاته؛ لأنّ الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعًا كالأجسام والهيآت ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك ﴿وهو اللطيف﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار ﴿الخبير﴾ بكل لطيف فهو يدرك الأبصار لا تلطف عن

---

(1) سورة الاعراف، الآية: 28.

(2) قال أحمد: وقد سلف الكلام على هذه الآية في غير موضعها؛ لأنّ المصنف تعجل الكلام عليها قبل والذي يريده الآن أنّ الإدراك عبارة عن الإحاطة ومنه فلما أدركه الغرق، أي: أحاط به ﴿وإنا لمدركون﴾، أي: محاط بنا، فالمنفي إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز، وعلا لا مجرّد الرؤية ثم إمّا أن نقتصر على أنّ الآية لا تدل على مخالفتنا، أو نزيد، فنقول يدل لنا أنّ تخصيص الإحاطة بالنفي يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك، وأقله مجرّد الرؤية كما أنا نقول: لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة = بمجرّدها حاصلة لكل مؤمن، فالإحاطة للعقل منفية كنفي الإحاطة للحس، وما دون الإحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منفي ولم ينكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلاً دليلاً، ولا شبهة فيحتاج إلى القدح فيه ثم معارضته بأدلة الجواز ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئي لا في جهة، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود، لا في جهة إذ اتباع الوهم يبعدهما جميعاً، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم، ويجيزهما معاً، وهذا القدر كاف بحسب ما أورده في هذا الوضع، والله الموفق.

إدراكه، وهذا من باب اللطف.

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾.

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ هو وارد على لسان رسول الله ﷺ لقوله: وما أنا عليكم بحفيظ. والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر، كما أنّ البصر نور العين الذي به تبصر، أي: جاءكم من الوحي والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر **﴿فمن أبصر﴾** الحق وآمن **﴿فلنفسه﴾** أبصر وإياها نفع **﴿ومن عمي﴾** عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضر بالعمى **﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾** أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم.

وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾.

﴿وليقولوا﴾ جوابه محذوف تقديره وليقولوا درست تصرّفها ومعنى **﴿درست﴾** قرأت وتعلمت، وقرئ: دارست أي: دارست العلماء ودرست بمعنى: قدّمت هذه الآيات وعفت، كما قالوا: أساطير الأوّلين، ودرست بضم الراء مبالغة في درست أي: اشتدّ دروسها، ودرست على البناء للمفعول بمعنى: قرئت أو عفيت، ودارست وفسروها بدارست اليهود محمدًا ﷺ، وجاز الإضمار؛ لأنّ الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لأهلها أي: دارس أهل الآيات وحملتها محمدًا وهم أهل الكتاب، ودرس أي: درس محمد ودارسات عليّ هي دارسات أي: قديمات أو ذات دروس كـ ﴿عيشة راضية﴾[1].

فإن قُلْتَ: أي فرق بين اللامين في **﴿ليقولوا﴾** و**﴿لنبينه﴾**؟ **قُلْتُ:** الفرق بينهما أنّ الأولى مجاز والثانية حقيقة، وذلك أنّ الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين شبّه به فسيق مساقه، وقيل ليقولوا كما قيل لنبيّه.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله: **﴿ولنبيّنه﴾** **قُلْتُ:** إلى **﴿الآيات﴾** لأنها في معنى القرآن، كأنه قيل: وكذلك نصرف القرآن، أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلومًا إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل كقولهم: ضربته زيدًا، ويجوز أن يراد فيمن قرأ: درست ودارست درست الكتاب ودراسته فيرجع إلى الكتاب المقدّر **﴿لا إله إلاّ هو﴾** اعتراض أكّد به إيجاب اتباع الوحي لا محلّ له من الإعراب، ويجوز أن يكون حالاً من ربك وهي حال مؤكدة كقوله: **﴿وهو الحق مصدّقًا﴾**[2].

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾.

﴿ولا تسبوا﴾ الآلهة **﴿الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله﴾** وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى: **﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾**[3] لننهينّ عن سب آلهتنا أو لنهجونّ إلٰهك، وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سببًا لسب الله تعالى.

فإن قُلْتَ: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صحّ النهي عنه، وإنما يصح النهي عن المعاصي؟ **قُلْتُ:** ربّ طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهي عنها؛ لأنها معصية لا لأنها طاعة، كالنهي عن المنكر هو من أجلّ الطاعات، فإذا علم أنه يؤدّي إلى زيادة الشر انقلب معصية، ووجب النهي عن ذلك النهي كما يجب النهي عن المنكر.

فإن قُلْتَ: فقد روي عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة، فرأى محمد نساء فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا؟ **قُلْتُ:** ليس هذا ممن نحن بصدده؛ لأن حضور الرجال الجنازة طاعة، وليس بسبب لحضور النساء، فإنهنّ يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة، وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبّه عليه الحسن **﴿عدوًا﴾** ظلمًا وعدوانًا، وقرئ: عدوًا بضم العين وتشديد الواو بمعناه: يقال عدا فلان عدوًا وعدوًا وعدوانًا وعداء، وعن ابن كثير: عدوًا بفتح العين بمعنى: أعداء **﴿بغير علم﴾** على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به **﴿كذلك زينا لكل أمّة﴾** مثل ذلك التزيين زينا لكل أمّة من الأمم الكفار سوء عملهم أي: خليناهم وشأنهم ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم، وقولهم: إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا **﴿فينبئهم﴾** فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾.

﴿لئن جاءتهم آية﴾ من مقترحاتهم **﴿ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله﴾** وهو[4] قادر عليها ولكنه لا ينزلها

---

(1) سورة القارعة، الآية: 7.

(2) سورة البقرة، الآية: 91.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(4) قال أحمد: ومحز النظر في الآية يتضح بمثال، فنقول إذا قال لك القائل أكرم، فلاناً فإنه يكافئك وكنت أنت تعلم منه عدم المكافأة، فإذا أنكرت على المشير بإكرامه قلت: وما يدريك أني إذا أكرمته =

إلاّ على موجب الحكمة، أو إنما الآيات عند الله لا عندي، فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها؟ ﴿وما يشعركم﴾ وما يدريكم ﴿أنها﴾ أنّ الآية التي تقترحونها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون﴾ بها، يعني: أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها، فقال عزّ وجلّ: وما يدريكم أنهم لا يؤمنون على معنى: أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم لا يؤمنون به، ألا ترى إلى قوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة﴾ وقيل: أنها بمعنى: لعلها، من قول العرب ائت السوق أنك تشتري لحمًا وقال امرؤ القيس:

عوجا على الطلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

وتقويها قراءة أبيّ: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، وقرئ*: بالكسر على أن الكلام قد تمّ قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال: أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة، ومنهم من جعل لا مزيدة في قراءة الفتح، وقرئ*: وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون أي: يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعًا عليها فلا يؤمنوا بها ﴿ونقلب أفئدتهم. ونذرهم﴾ عطف على لا يؤمنون داخل في حكم وما يشعركم بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم أي: نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا، أو لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعًا على قلوبهم، وما يشعركم إنا نذرهم في طغيانهم أي: نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه، وقرئ*: ويقلب ويذرهم بالياء أي: الله عزّ وجلّ، وقرأ الأعمش: وتقلب أفئدتهم وأبصارهم على البناء للمفعول.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ كما قالوا: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾[1] ﴿وكلمهم الموتى﴾ كما قالوا: ﴿فأتوا بآبائنا﴾[2] ﴿وحشرنا عليهم كلّ شيء قبلاً﴾ كما قالوا: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾[3] ﴿قبلاً﴾ كفلاء بصحة ما بشّرنا به وأنذرنا، أو جماعات، وقيل ﴿قبلاً﴾ مقابلة، وقرئ*: قبلاً أي: عيانًا ﴿إلا أن يشاء الله﴾ مشيئة[4] إكراه واضطرار ﴿ولكنّ أكثرهم يجهلون﴾ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات، أو ولكنّ أكثر المسلمين يجهلون أنّ هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرّهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا﴾ وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم، لم

= يكافئني، فأنكرت عليه إثباته المكافأة، وأنت تعلم نفيها، فإن انعكس الأمر، فقال لك: لا تكرمه، فإنه لا يكافئك، وكنت تعلم منه المكافأة، فأنكرت على المشير بحرمانه قلت، وما يدريك أنه لا يكافئني تريد، وأنا أعلم منه المكافأة، فكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظنّ بالمعاندين، فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال: وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون، ما تقول في المثال منكراً على من أثبت المكافأة، وأنت تعلم خلافها، وما يدريك أنه يكافئني باسقاط، لا وإن أثبتها انعكس المعنى إلى أنّ المعلوم لك الثبوت، وأنت تنكر على من نفى، فلما جاءت الآية تفهم ببادئ* الرأي، أنّ الله تعالى علم الإيمان منهم، وأنكر على المؤمنين نفيهم له، والواقع على خلاف ذلك اختلف العلماء، فحمل بعضهم لا على الزيادة، وبعضهم أوّل أن بلعل وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محذوف، وقد تفتح أن بعد القسم، فقال التقدير والله أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأما الزمخشري، فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها من غير حذف، ولا تأويل، فقال قوله السالف، ونحن نوضح اطراده في المثال المذكور، ليتضح بوجهيه في الآية، فنقول إذا حرمت زيداً لعلمك بعدم مكافأته، فأشير عليك بالإكرام بناء على أنّ المشير يظنّ المكافأة، فلك معه حالتان حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علماً، فإن أنكرت عليه قلت، وما يدريك أنه يكافىء، وإن عذرته في عدم علمه بأنه لا يكافىء، قلت وما يدريك أنه لا يكافئ يعني: ومن=

= أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته، وأنت لم تخبر أمره خبري، فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى، وهو عدم إيمان هؤلاء، فاستقام دخول لا، وتعين، وتبين أنّ سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعذار، والله الموفق للصواب.

(1) سورة الفرقان، الآية: 21.

(2) سورة الدخان، الآية: 36.

(3) سورة الإسراء، الآية: 92.

(4) قال أحمد: بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الإيمان، فإنه تعالى لو شاء منهم اختيارهم للإيمان، لاختاروه وآمنوا حتماً ما شاء الله كان، والزمخشري بني على القاعدة الفاسدة في اعتقاده أنّ الله تعالى شاء منهم الإيمان اختياراً، فلم يؤمنوا إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة، ولا يطلقون القول، كما أطلقه سلف هذه الأمّة وحملة شريعتها من قولهم ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن بل يقولون إنّ أكثر ما شاءه لم يقع، إذ شاء الإيمان، والصلاح من جميع الخلق، فلم يؤمن ويعمل الصالح، إلا القليل، وقليل ما هم وهذا كله مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً، فإذا صدمتهم مثل هذه الآية بالردّ تحيلوا في المدافعة بحمل المشيئة المنفية على مشيئة القسر، والاضطرار وإنما يتمّ لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء، وأمّا وهو القدرة، والمتبوع، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه، فإلى النار وما بعد الحق، إلا الضلال، والله الموفق للصواب.

نمنهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر. وانتصب ﴿شياطين﴾ على البدل من عدوًّا أو على أنهما مفعولان كقوله: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ﴾[1] ﴿يوحي بعضهم إلى بعض﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، وكذلك بعض الجنّ إلى بعض، وبعض الإنس إلى بعض، وعن مالك بن دينار: إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجن؛ لأني إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عني، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عيانًا. ﴿زخرف القول﴾ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموّهه ﴿غرورًا﴾ خدعًا وأخذًا على غرّة ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ ذلك أي: ما عادوك أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾.

﴿ولتصغى﴾ جوابه محذوف تقديره وليكون ذلك جعلنا لكل نبيّ عدوًّا على أنّ اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر والضمير في ﴿إليه﴾ يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه، أي: ولتميل إلى ما نكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين ﴿أفئدة﴾ الكفار ﴿وليرضوه﴾ لأنفسهم ﴿وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ من الآثام.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾.

﴿أفغير الله أبتغي حكمًا﴾ على إرادة القول أي: قل يا محمد أفغير الله أطلب حاكمًا يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب﴾ المعجز ﴿مفصلاً﴾ مبينًا فيه الفصل بين الحق والباطل، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حقّ لتصديقه ما عندهم وموافقته له ﴿فلا تكوننّ من الممترين﴾ من باب التهييج والإلهاب كقوله تعالى: ﴿ولا تكوننّ من المشركين﴾[2] أو ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به، ويجوز أن يكون فلا تكونن خطابًا لكل أحد، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه فما ينبغي أن يمتري فيه أحد، وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ خطابًا لأمّته.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾.

﴿وتمّت كلمات ربك﴾ أي: تمّ كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد ﴿صدقًا وعدلاً لا مبدّل لكلماته﴾ لا أحد يبدّل شيئًا من ذلك بما هو أصدق أعدل، و ﴿صدقًا وعدلاً﴾ نصب على الحال، وقرئ كلمة ربك أي: ما تكلم به، وقيل: هي القرآن.

﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾ من الناس أضلوك؛ لأنّ الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم، ثم قال: ﴿إن يتبعون إلا الظنّ﴾ وهو ظنهم أنّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ يقدّرون أنهم على شيء أو يكذبون في أنّ الله حرّم كذا وأحلّ كذا. وقرئ من يضل بضم الياء أي: يضله الله.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾.

﴿فكلوا﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرّمون الحلال، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم؟ فقيل للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا ﴿مما ذكر اسم الله عليه﴾ خاصة دون ما نكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه، وما نكر اسم الله عليه هو: المذكى ببسم الله.

﴿وما لكم ألا تأكلوا﴾ وأي: غرض لكم في أن لا تأكلوا ﴿وقد فصل لكم﴾ وقد بيّن لكم ﴿ما حرّم عليكم﴾ مما لم يحرّم وهو قوله: ﴿حرّمت عليكم الميتة﴾[3] وقرئ: فصل لكم ما حرّم عليكم على تسمية الفاعل وهو: الله عزّ وجلّ ﴿إلا ما اضطررتم إليه﴾ مما حرّم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة ﴿وإنّ كثيرًا ليضلون﴾ قرئ: بفتح الياء وضمها أي: يضلون فيحرّمون ويحللون ﴿بأهوائهم﴾ وشهواتهم من غير تعلق بشريعة.

﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾ ما أعلنتم منه وما أسررتم، وقيل: ما عملتم وما نويتم، وقيل: ظاهره الزنا في الحوانيت، وباطنه الصديقة في السر ﴿وإنه لفسق﴾ الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهي يعني: وأن الأكل منه لفسق، أو إلى الموصول على وإن أكله لفسق، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في

(1) سورة الأنعام، الآية: 100.
(2) سورة الأنعام، الآية: 14.
(3) سورة المائدة، الآية: 3.

نفسه فسقًا.

فإن قُلْتَ[1]: قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد؟ **قُلْتُ**: قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما نكر غير اسم الله عليه كقوله: ﴿وفسقًا أهلّ لغير الله به﴾[2] **﴿ليوحون﴾** ليوسوسون **﴿إلى أوليائهم﴾** من المشركين **﴿ليجادلوكم﴾** بقولهم ولا تأكلون مما قتله الله، وبهذا يرجع تأويل من تأوّله بالميتة **﴿إنكم لمشركون﴾** لأنّ من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به، ومن حق ذي البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان، لما يرى في الآية من التشديد العظيم، وإن كان أبو حنيفة رحمه الله مرخصًا في النسيان في العمد ومالك والشافعي رحمهما الله فيهما.

أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾.

مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به المحق والمبطل والمهتد والضال بمن كان ميتًا فأحياه الله وجعل له نورًا يمشي به في الناس مستضيئًا به فيميز بعضهم من بعض ويفصل بين حلاهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله **﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾** كمن صفته هذه وهي قوله: في الظلمات ليس بخارج منها بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها كقوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار﴾[3] أي: صفتها هذه وهي قوله: فيها أنهار **﴿زين للكافرين﴾** أي زينه الشيطان أو الله عزّ وعلا على قوله: ﴿زينا لهم أعمالهم﴾[4] ويدل عليه قوله:

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾.

﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها﴾ يعني: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك، ومعناه خليناهم ليمكروا وما كففناهم عن المكر، وخص الأكابر؛ لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس كقوله: ﴿أمرنا مترفيها﴾[5] وقرئ: أكبر مجرميها على قولك: هم أكبر قومهم وأكابر قومهم **﴿وما يمكرون إلا بانفسهم﴾** لأنّ مكرهم يحيق بهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روي أنّ الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوّة حقًا لكنت أولى بها منك؛ لأني أكبر منك سنًا وأكثر منك مالاً، وروي أنّ أبا جهل قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبيّ يوحي إليه، والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت، ونحوها قوله تعالى: ﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفًا منشرة﴾[6].

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾.

﴿الله أعلم﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطفي للنبوّة إلا من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم

---

(1) قال أحمد: مذهب مالك، وأبي حنيفة سواء في أنّ متروك التسمية عمداً لا يؤكل، سواء كان تهاوناً، أو غير تهاون، ولاشهب قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته، والآية تساعد مذهب الإمامين مساعدة بينة، فإنه نكر عقيب غير المسمى عليه قوله، وإنه لفسق وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف، وهو: إهمال التسمية، أو تسمية غير الله، فلا يدخل النسيان؛ لأنّ الناسي غير مكلف، فلا يكون فعله فسقاً، ولا هو فاسق، وإن كان نفس الفسق الذبيحة، التي لم يسم عليها، ولم يكن مصدراً، فإنما تسمى الذبيحة: فسقاً نقلاً لهذا الاسم من المصدر إلى الذات، فالذبيحة التي تركت التسمية عليها نسياناً، لا يصح أن تسمى فسقاً إذ الفعل الذي ينقل منه هذا الاسم ليس بفسق، فإذا تمهد ذلك، فإما أن يقول لا دليل في الآية على تحريم منسي التسمية، فبقي على أصل الإباحة، أو يقول فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيص النهي، بما هو فسق، فما ليس بفسق ليس بحرام وهذا النظر يسند إذا لم تكن الميتة متناولة في هذه الآية، وأما إذا اثبت أنها مرادة تعين صرف الفسق إلى الأكل، والماكول، وكان الضمير من قوله، وإنه عائد إلى المصدر المنهي عنه، أو إلى الموصول وحينئذ يندرج المنسي في النهي، ولا يستقيم على أنّ الميتة مندرجة، كاندراج المنسي؛ لأنّ الوجه الذي به تندرج الميتة هو: الوجه الذي به يندرج المنسي، إذ يكون الفسق إما للأكل، وإما للماكول نقلاً من الأكل، ولا ينصرف إلى غير ذلك؛ لأنّ الميتة لم = يفعل المكلف فيها فعلاً يسمى: فسقاً سوى الأكل، والمنسي تسميتها لا يستتقيم أن يسمى الذبح فيها فسقاً، لأجل النسيان، فيتعين صرفه إلى الأكل، ومن ثم قوي عند الزمخشري تعميم التحريم، حتى في المنسي؛ لأنه يرى أنّ الميتة مرادة من الآية، ولا بد إذ هي سبب نزول الآية، والتحقيق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصاً في السبب ظاهراً باقياً على ظهوره، فيما عداه، وإذا ثبت اندراج الميتة لزم اندراج المنسي، كما تقدّم وحينئذ يضطر مبيح المنسي إلى مخصص، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام ذكر الله على قلب كل مؤمن من سمي، أو لم يسم وكان الناسي ذاكراً حكماً، وإن لم يكن ذاكراً وجوداً، وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص، ولكن منع، لاندراج الناسي في العموم، وسنده الحديث المذكور، ويؤيد بأنّ العام الوارد على سبب خاص، وإن قوي تناوله للسبب، حتى ينهض الظاهرة فيه نصاً، إلا أنه ضعيف التناول لما عداه، حتى ينحط عن أمالي الظواهر فيه، ويكتفي من معارضته، بما لا يكتفي به منه، لولا السبب، وهذا البحث متطلع بفنون.

(2) سورة الأنعام، الآية: 145.

(3) سورة محمد، الآية: 15.

(4) سورة النمل، الآية: 4.

(5) سورة الإسراء، الآية: 16.

(6) سورة المدثر، الآية: 52.

بالمكان الذي يضعها فيه منهم ﴿سيصيب الذين أجرموا﴾ من أكابرها ﴿صغار﴾ وقماءة بعد كبرهم وعظمتهم ﴿وعذاب شديد﴾ في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾.

﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أن يخذله ويخليه وشأنه وهو الذي لا لطف له ﴿يجعل صدره ضيقًا حرجًا﴾ يمنعه ألطافه حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق وينسدّ فلا يدخله الإيمان، وقرئ: ضيقًا بالتخفيف والتشديد، حرجًا بالكسر وحرجًا بالفتح وصفًا بالمصدر ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ كأنما يزاول أمرًا غير ممكن؛ لأنّ صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة، وقرئ: يصعد وأصله يتصعد، وقرأ عبد الله يتصعد ويصاعد وأصله يتصاعد ويصعد من صعد ويصعد من أصعد ﴿يجعل الله الرجس﴾ يعني: الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب، أو أراد الفعل المؤدّي إلى الرجس وهو: العذاب من الارتجاس وهو: الاضطراب.

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾.

﴿وهذا صراط ربك﴾ وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان ﴿مستقيمًا﴾ عادلاً مطردًا، وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله: ﴿وهو الحق مصدقًا﴾[1].

لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾.

﴿لهم﴾ لقوم ينكرون ﴿دار السلام﴾ دار الله يعني: الجنة، أضافها إلى نفسه تعظيمًا لها، أو دار السلامة من كل آفة وكدر ﴿عند ربهم﴾ في ضمانه، كما تقول لفلان: عندي حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها كقوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾[2] ﴿وهو وليهم﴾ مواليهم ومحبهم أو ناصرهم على أعدائهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ بسبب أعمالهم أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾.

﴿ويوم نحشرهم﴾ منصوب بمحذوف أي: واذكر يوم نحشرهم أو يوم نحشرهم قلنا ﴿يا معشر الجنّ﴾ أو ويوم نحشرهم وقلنا: يا معشر الجنّ، كان ما لا يوصف لفظاعته، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم، والجنّ هم: الشياطين ﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أضللتم منهم كثيرًا أو جعلتموهم أتباعكم، فحشر معكم منهم الجم الغفير، كما تقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأشياع ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها، وانتفع الجنّ بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم. وقيل: استمتاع الإنس بالجنّ ما في قوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن﴾[3] وأنّ الرجل كان إذا نزل واديًا وخاف قال: أعوذ بربّ هذا الوادي يعني به: كبير الجنّ، واستمتاع الجنّ بالإنس اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ يعنون: يوم البعث، وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين، واتباع الهوى، والتكذيب بالبعث، واستسلام لربهم وتحسر على حالهم ﴿خالدين فيها إلا ما شاء الله﴾ أي[4]: يخلدون في عذاب النار الأبد كله، إلا ما شاء الله إلا الأوقات التي ينقلون فيها

---

(1) سورة البقرة، الآية: 91.

(2) سورة السجدة، الآية: 17.

(3) سورة الجن، الآية: 6.

(4) قال أحمد: قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتاً قطعياً، فمن ثم عنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية، وفي أختها في سورة هود، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين، وللكفار والمستثنى العصاة؛ لأنهم لا يخلدون، وهذا تأويل أهل السنة، وقد غلط الزمخشري في إنكاره في آية هود، وتناهى إلى ما نعوذ بالله منه، فقدح في عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، راوي الحديث الشاهد لهذا التأويل، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح في مثل عبد الله، وهو من جلة الصحابة رضوان الله عليهم، وفقهائهم وزهادهم، وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب، أي: مخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء = وفائدته إظهار القدرة والإعلان بأنّ خلودهم إنما كان؛ لأنّ الله تعالى قد شاءه وكان من الجائز العقلي في مشيئته أن لا يعذبهم، ولو عذبهم لا يخلدهم، وأنّ ذلك ليس بأمر واجب عليه، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عزّ وجلّ، وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة، الذين يزعمون أنّ تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك، وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر بالبسط، فقال المراد، والله أعلم إلا ما شاء من زيادة العذاب، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء والمستثنى على هذا التأويل، لم يغاير المستثنى منه في الحكم ونحن نبيّنه، فتقول العذاب والعياذ بالله على درجات متفاوتة، فكان المراد أنهم مخلدون في حبس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهي إلى أقصى النهاية، حتى تكاد لبلوغها الغاية، ومباينتها لأنواع العذاب في الشدّة تعد=

من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روي: أنهم يدخلون واديًا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم، أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه: أهلكني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه باقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلا إذا شئت، من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع ﴿إن ربك حكيم﴾ لا يفعل شيئًا إلا بموجب الحكمة ﴿عليم﴾ بأنّ الكفار يستوجبون عذاب الأبد.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾.

﴿نولي بعض الظالمين بعضًا﴾ نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضًا كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي. يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ ﴿ألم ياتكم رسل منكم﴾ واختلف في أنّ الجن هل بعث إليهم رسل منهم؟ فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم؛ لأنهم به آنس ولو آلف، وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة وإنما قيل: رسل منكم؛ لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحّ ذلك وإن كان من أحدهما كقوله: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾[1] وقيل: أراد رسل الرسل من الجن إليهم كقوله تعالى: ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾[2] وعن الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الإنس، ورسول الله ﷺ بعث إلى الإنس والجن ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله: ﴿ألم ياتكم﴾ لأنّ الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريرًا لهم وقولهم: ﴿شهدنا على أنفسنا﴾ إقرار منهم بأنّ حجة الله لازمة لهم وأنهم محجوجون بها.

فإن قُلْتَ: ما لهم مقرين في هذه الآية جاحدين في قوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾[3]؟ **قُلْتُ:** تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاول، فيقرون في بعضها ويجحدون في بعضها، أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم.

فإن قُلْتَ: لم كرّر نكر شهادتهم على أنفسهم؟ **قُلْتُ:** الأولى: حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون، والثانية: ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه، وإنما قال ذلك تحذيرًا للسامعين من مثل حالهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة وهو: خبر مبتدأ محذوف، أي: الأمر ذلك و ﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى﴾ تعليل، أي: الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم، على أن هي التي تنصب الأفعال، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة على معنى؛ لأنّ الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم، ولك أن تجعله بدلاً من ذلك كقوله: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أنّ دابر هؤلاء مقطوع﴾[4] ﴿بظلم﴾ بسبب ظلم قدموا عليه، أو ظالمًا على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظلمًا، وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح ﴿ولكل﴾ من المكلفين ﴿درجات﴾ منازل ﴿مما عملوا﴾ من جزاء أعمالهم ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بساه عنه، يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۙ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾.

﴿وربك الغني﴾ عن عباده وعن عبادتهم ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة ﴿إن يشا يذهبكم﴾ أيها العصاة ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ من الخلق المطيع ﴿كما انشاكم من ذرية قوم آخرين﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾.

= ليس من جنس العذاب وخارجة عنه، والشيء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد، كما تقدّم في التعبير عن كثرة الفعل، برب، وقدوهما موضوعان لضرر الكثرة من القلة، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب، وقد حام أبو الطيب حوله، فقال:

لقد جئت حتى كاد يبخل حاتم إلى المنتهى ومن السرور يكاد

فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدّة، فقد وصلوا إلى الحد الذي يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق، حتى يسوغ = معاملته في التعبير، بمعاملة المغاير وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج، إلا بعد هذا البسط وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنه ما يؤيده والله الموفق.

(1) سورة الرحمن، الآية: 22.

(2) سورة الأحقاف، الآية: 29.

(3) سورة الأنعام، الآية: 23.

(4) سورة الحجر، الآية: 66.

﴿المكانة تكون مصدرًا يقال: مكّن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن، وبمعنى المكان: يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة وقوله: ﴿**اعملوا على مكانتكم**﴾ يحتمل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ﴿**إني عامل**﴾ أي: عامل على مكانتي التي أنا عليها والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ﴿**فسوف تعلمون**﴾ أينا تكون له العاقبة المحمودة وطريقة هذا الأمر طريقة قوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾[1] وهي التخلية والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتقصى عنه ويعمل بخلافه.

فإن قُلْتَ: ما موضع ﴿**من**﴾ **قُلْتُ:** الرفع إذا كان بمعنى: أي وعلق عنه فعل العلم، أو النصب إذا كان بمعنى: الذي و ﴿**عاقبة الدار**﴾ العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها، وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدّة الوعيد، والوثوق بأنّ المنذر محق والمنذر مبطل.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾.

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج لله وأشياء منهما لآلهتهم، فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكيًا ناميًا يزيد في نفسه خيرًا رجعوا فجعلوه للآلهة، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها، واعتلوا بأنّ الله غنيّ، وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها وقوله ﴿**مما ذرأ**﴾ فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكي؛ لأنه هو الذي ذرأه وزكاه، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرء ولا تزكية ﴿**بزعمهم**﴾ وقرئ بالضم أي: قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك؛ لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم في القربة ﴿**فلا يصل إلى الله**﴾ أي: لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين ﴿**فهو يصل إلى شركائهم**﴾ من إنفاق عليها بذبح نسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك ﴿**ساء ما يحكمون**﴾ في إيثار آلهتهم على الله تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم.

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾.

﴿**وكذلك**﴾ ومثل ذلك التزيين وهو: تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي هو: علم من الشياطين والمعنى[2]: أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم

---

(1) سورة فصلت، الآية: 40.

(2) قال أحمد رحمه الله: لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء وتاه في تيهاء، وأنا أبرأ إلى الله وأبرئ حملة كتابه وحفظه كلامه، مما رماهم به، فإنه تخيل أن القراء السبعة اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً، لا نقلاً وسماعاً، فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة في شركائهم، فاستدل بذلك على أنه مجرور وتعين عنده نصب أولادهم بالقياس، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً، فقرأه منصوباً قال المصنف: وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جرّه بالإضافة وإبدال الشركاء منه وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعني: ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه، الذي يسمج في الشعر فضلاً عن النثر، فضلاً عن المعجز، فهذا كله كما ترى ظن من الزمخشري، أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه، وكان الصواب خلافه، والفصيح سواه، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها، يعلم ضرورة أن النبي ﷺ قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك ثم تلاها النبي ﷺ على عدد التواتر من الأئمة، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها، ويقرؤن بها خلفاً عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها، فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق الضاد ﷺ، فإذا علمت العقيدة الصحيحة، فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشري، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر، فإن المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة ولولا عذر أن= = المنكر ليس من أهل الشأنين أعني علم القراءة، وعلم الأصول، ولا يعد من ذوي الفنين المنكورين لخيف عليه الخروج من ربقة الدين، وأنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة وزلة منكرة تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل، وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر، وأما الزمخشري فظنّ أنها تثبت بالرأي غير موقوفة على النقل، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين وما حمله على هذا الخيال، لا التغالي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية، فظنها قطعية حتى يردّ ما خالفها ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذي ادعاه مطرداً، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه، وإن كان عسراً إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله، فهو مقدر بالفعل وبهذا التقدير عمل، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة، حتى قال بعض النحاة: إن إضافته ليست محضة لذلك، فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره لما بيناه من انفكاكه في التقدير وعدم توغله في الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس أجنبياً عنه، وكأنه بالتقدير فكه بالفعل، ثم قدّم المفعول على الفاعل، وأضافه إلى الفاعل، وبقي المفعول مكانه حين الفك، ويسهل ذلك أيضاً تغاير حال المصدر، إذ تارة يضاف إلى الفاعل، وتارة يضاف إلى المفعول، وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل، لوقوعه في=

بالوأد أو بنحرهم للآلهة، وكان الرجل في الجاهلية يحلف لئن ولد له كذا غلامًا لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب. وقرئ زين على البناء للفاعل الذي هو: شركاؤهم، ونصب قتل أولادهم وزين على البناء للمفعول الذي هو: القتل، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين كأنه قيل: لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه فقيل: زينه لهم شركاؤهم، وأما قراءة ابن عامر: قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجرّ الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجًا مردودًا كما سمج ورد زج القلوص أبي مزاده.

فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوبًا بالياء ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء؛ لأنّ الأولاد شركاؤهم في أموالهم، لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب **﴿ليردوهم﴾** ليهلكوهم بالإغواء **﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾** وليخلطوه عليهم ويشبهوه، ودينهم ما كانوا عليه من دين إسمٰعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك، وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل: معناه وليوقعوهم في دين ملتبس.

فإن قُلْتَ: ما معنى اللام؟ **قُلْتُ:** إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة **﴿ولو شاء الله﴾** مشيئة قسر **﴿ما فعلوه﴾** لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل، أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك إن جعلت الضمير جاريًا مجرى اسم الإشارة **﴿وما يفترون﴾** وما يفترونه من الإفك أو وافتراؤهم.

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿حجر﴾ فعل بمعنى: مفعول كالذبح والطحن، ويستوي في الوصف به المنكر والمؤنث والواحد والجمع؛ لأنّ حكمه حكم الأسماء غير الصفات، وقرأ الحسن وقتادة: حجر بضم الحاء، وقرأ ابن عباس: حرج وهو: من التضييق، وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا: **﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾** يعنون: خدم الأوثان والرجال دون النساء **﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾** وهي: البحائر والسوائب والحوامي **﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾** في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام، وقيل: لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها، والمعنى: أنهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعام حجر، وهذه أنعام محرمة الظهور، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله، فجعلوها أجناسًا بهواهم ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله **﴿افتراء عليه﴾** أي: فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال أو مصدر مؤكد؛ لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء.

وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾.

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حيًا: فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث، وما ولد منها ميتًا اشترك فيه الذكور والإناث[1]، وأنّث **﴿خالصة﴾** للحمل على المعنى؛ لأنّ **﴿ما﴾** في معنى الأجنة وذكر **﴿محرم﴾** للحمل على اللفظ ونظيره **﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك﴾**[2] ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن تكون مصدرًا وقع

= غير مرتبته، إذ ينوي به التأخير، فكأنه لم يفصل كما جاز تقدّم المضمر على الظاهر إذا حل في غير رتبته، لأن النية به التأخير وأنشد أبو عبيدة:

فداسهم دوس الحصاد الدائس

وأنشد أيضاً:

يفر كن حب السنبل الكنافج بالقاع فرك القطن المحالج

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول، ومما يقوي عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظرة، بشواهد من أقيسة العربية، تجمع شمل القوانين النحوية لهذه القراءة، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة، وهذا القدر كاف إن شاء الله في الجمع بينهما، والله الموفق، وما أجريناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه، التي يدل باجتماعها على أنّ الفصل غير منكر في إضافته، ولا مستبعد من القياس، ولم نفرده في الدلالة المذكورة، إذ المتفق على عدم = تمحضها لا يسوّغ فيها الفصل، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة، والله الموفق.

(1) قال أحمد: ليسا سواء؛ لأنه في الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى، وفيه إجمال، وبينهما بون اقتضى أن أنكر جماعة من متأخري الفن وقوعه في الكتاب العزيز، وادعوا أنّ جميع ما ورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ، وقد التزم غيرهم إجازة ذلك وعدوا في الكتاب العزيز، منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصول، وعلى الجملة، فالحمل على اللفظ بعد المعنى قليل، وغيره أولى ما وجد إليه سبيل، وقد نكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك، فقال ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر، وأن يكون مصدراً وقع موقع الخالص، كالعافية، أي: نو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب، على أنّ قوله لذكورنا هو الخبر، وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدّمة؛ لأنّ المجرور لا يتقدّم عليه حاله، ولقد أحسن في الاحتراز بمنع الحال من المجرور، حتى يتعين المصدر.

(2) سورة محمد، الآية: 16.

موقع الخالص كالعاقبة أي: ذو خالصة، ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب على أنّ قوله ﴿لذكورنا﴾ هو الخبر وخالصة مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدّمة؛ لأنّ المجرور لا يتقدّم عليه حاله، وقرأ ابن عباس: خالصه على الإضافة، وفي مصحف عبد الله: خالص ﴿وإن يكن ميتة﴾ وإن يكن ما في بطونها ميتة، وقرئ: إن تكن بالتأنيث على وإن تكن الأجنة ميتة، وقرأ أهل مكة: وإن تكن ميتة بالتأنيث والرفع على كان التامّة، وتذكير الضمير في قوله: ﴿فهم فيه شركاء﴾؛ لأنّ الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى فكأنه قيل: وإن يكن ميت فهم فيه شركاء ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم من قوله تعالى: ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾[1] ﴿هذا حلال وهذا حرام﴾[2] نزلت في ربيعة ومضر والعرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾.

﴿سفهًا بغير علم﴾ لخفة أحلامهم وجهلهم بأنّ الله هو رازق أولادهم لا هم. وقرئ: قتلوا بالتشديد ﴿ما رزقهم الله﴾ من البحائر والسوائب وغيرها.

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾.

﴿أنشأ جنات﴾ من الكروم ﴿معروشات﴾ مسموكات ﴿وغير معروشات﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرّش، وقيل: المعروشات ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرّشوه، وغير معروشات مما أنبته الله وحشيًا في البراري والجبال فهو غير معروش، يقال: عرشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكًا تعطف عليه القضبان، وسقف البيت عرشه ﴿مختلفًا أكله﴾ في اللون والطعم والحجم والرائحة، وقرئ: أكله بالضم والسكون، وهو ثمره الذي يؤكل والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفًا عليه ومختلفًا حال مقدّرة؛ لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك كقوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾[3] وقرئ: ثمره بضمتين.

فإن قُلْتَ: ما فائدة قوله ﴿إذا أثمر﴾ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه؟ **قُلْتُ:** لما أبيح لهم الأكل من ثمره، قيل: إذا أثمر ليعلم أنّ أوّل وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ الآية مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة، فأريد بالحق ما كان يتصدّق به على المساكين يوم الحصاد، وكان ذلك واجبًا حتى نسخه افتراض العشر ونصف العشر، وقيل: مدنية. والحق هو الزكاة المفروضة، ومعناه: واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه عن أوّل وقت يمكن فيه الإيتاء ﴿ولا تسرفوا﴾ في الصدقة، كما روي عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرّق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئًا إلى منزله ﴿ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملومًا محسورًا﴾[4].

وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾.

﴿حمولة وفرشًا﴾ عطف على جنات أي: وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش، وقيل: الحمولة الكبار التي تصلح للحمل، والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم. لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها مثل الفرش المفروش عليها ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية.

﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من ﴿حمولة وفرشًا﴾ ﴿اثنين﴾ زوجين اثنين يريد: الذكر والأنثى كالجمل والناقة والثور والبقرة والكبش والنعجة والتيس والعنز، والواحد إذا كان وحده فهو فرد، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منهما زوجًا وهما زوجان بدليل قوله ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾[5] الدليل عليه قوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ ثم فسرها بقوله: من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، ونحو تسميتهم الفرد بالزوج بشرط أن يكون معه آخر من جنسه تسميتهم الزجاجة كأسًا بشرط أن يكون فيها خمر. والضأن والمعز جمع ضائن وماعز كتاجر وتجر، وقرئا: بفتح العين، وقرأ أبيّ: ومن المعزى. وقرئ: اثنان على الابتداء. الهمزة في ﴿الذكرين﴾ للإنكار، والمراد: بالذكرين الذكر من الضأن والذكر من المعز. وبالأنثيين الأنثى من الضأن والأنثى من المعز على طريق الجنسية، والمعنى: إنكار أن يحرّم الله تعالى من جنسي الغنم ضأنها ومعزها

(1) سورة النحل، الآية: 62.
(2) سورة النحل، الآية: 116.
(3) سورة الزمر، الآية: 73.
(4) سورة الإسراء، الآية: 29.
(5) سورة النجم، الآية: 45.

شيئًا من نوعي نكورها وإناثها ولا مما تحمل إناث الجنسين، وكذلك الذكران من جنسي الإبل والبقر والانثيان منهما وما تحمل إناثهما، وذلك أنهم كانوا يحرّمون ذكورة الانعام تارة، وإناثها تارة، وأولادهما كيفما كانت ذكورًا وإناثًا أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون: قد حرّمها الله، فانكر ذلك عليهم.

﴿نبئوني بعلم﴾ أخبروني بامر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرّمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنّ الله حرّمه ﴿أم كنتم شهداء﴾ بل أكنتم شهداء ومعنى الهمزة: الإنكار يعني: أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم، ونكر المشاهدة على مذهبهم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون: الله حرّم هذا الذي تحرّمه، فتهكم بهم في قوله: أم كنتم شهداء على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين؛ لأنكم لا تؤمنون بالسل ﴿فمن اظلم ممن افترى على الله كذبًا﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم ﴿ليضل الناس﴾ وهو: عمرو بن لحي ابن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب.

فإن قُلْتَ: كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه؟ ولم يوال بينه **قُلْتُ:** قد وقع الفاصل بينهما اعتراضًا غير اجنبي من المعدود، وذلك أنّ الله عزّ وجلّ منّ على عباده بإنشاء الانعام لمنافعهم وبإباحتها لهم، فاعترض بالاحتجاج على من حرّمها، والاحتجاج على من حرّمها تاكيد وتسديد للتحليل، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد.

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾.

﴿فيما أوحى إليّ﴾ تنبيه على أنّ التحريم إنما يثبت بوحي الله تعالى وشرعه لا بهوى الأنفس ﴿محرّمًا﴾ طعامًا محرّمًا من المطاعم التي حرّمتموها ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ إلا أن يكون الشيء المحرّم ميتة ﴿أو دمًا مسفوحًا﴾ اي: مصبوبًا سائلاً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال، وقد رخص في دم العروق بعد الذبح ﴿أو فسقًا﴾ عطف على المنصوب قبله سمي ما أهلّ به لغير الله فسقًا لتوغله في باب الفسق ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾[1] و﴿أهلّ﴾ صفة له منصوبة المحل، ويجوز أن يكون مفعولاً له من أهلّ اي: أهلّ لغير الله به فسقًا.

فإن قُلْتَ: فعلام تعطف ﴿أهلّ﴾ وإلام يرجع الضمير في ﴿به﴾ على هذا القول؟ **قُلْتُ:** يعطف على يكون ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكنّ في يكون ﴿فمن اضطرّ﴾ فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرّمات ﴿غير باغ﴾ على مضطرّ مثله تارك لمواساته ﴿ولا عاد﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ لا يؤاخذه.

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾.

ذو الظفر ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حرّم ذلك عليهم، فعمّ التحريم كل ذي ظفر بدليل قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾[2]. وقوله: ﴿ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما﴾ كقولك: من زيد أخذت ماله تريد بالإضافة زيادة الربط والمعنى: أنه حرّم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرّم منهما إلا الشحوم الخالصة وهي الثروب وشحوم الكلى، وقوله: ﴿إلا ما حملت ظهورهما﴾ يعني: إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحفة ﴿أو الحوايا﴾ أو اشتمل على الأمعاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾ وهو شحم الالية، وقيل: الحوايا عطف على شحومهما وأو بمنزلتها في قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين ﴿ذلك﴾ الجزاء ﴿جزيناهم﴾ وهو: تحريم الطيبات ﴿ببغيهم﴾ بسبب ظلمهم ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أوعدنا به العصاة لا نخلفه كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة، فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب[3].

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾.

﴿فإن كذبوك﴾ في ذلك وزعموا أن الله واسع الرحمة وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جودًا وكرمًا ﴿فقل﴾ لهم ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ لأهل طاعته ﴿ولا يردّ بأسه﴾ مع سعة رحمته ﴿عن القوم المجرمين﴾ فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته.

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 121.

(2) سورة النساء، الآية: 160.

(3) قال أحمد: هذه الآية وردت فيمن كفر وافترى على الله، ووعيد الكافر باتفاق واقع به غيره مردود عنه، وأهل السنة وإن قالوا: يجوز العفو عن العاصي الموحد، فلا يقولون إنّ ذلك حتم ولا يلزمهم ذلك؛ لأنّ الله تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة علق = حلول الوعيد بهم بالمشيئة، وأخبر أنه يغفر لمن يشاء منهم، فمن ثم اعتقدنا أن كل موحد عاص في المشيئة، وحيث أطلق وعيدهم في بعض الظواهر، فهو محمول على المقيد، فلا يلزمهم حينئذ اعتقاد الخلف في الخبر والزمخشري، إنما يدندن حول إلزامهم ذلك، وأنى له.

حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾.

﴿سيقول الذين أشركوا﴾[1] إخبار بما سوف يقولونه ولما قالوه قال: **﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾**[2] يعنون بكفرهم[3] وتمرّدهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئة الله وإرادته، ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمذهب المجبرة بعينه **﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾** أي: جاؤا بالتكذيب المطلق؛ لأنّ الله عزّ وجلّ ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دلّ على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها، والرسل أخبروا بذلك، فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره **﴿حتى ذاقوا بأسنا﴾** حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم **﴿قل هل عندكم من علم﴾** من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم **﴿فتخرجوه لنا﴾** وهذا من التهكم والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة **﴿إن تتبعون إلا الظن﴾** في قولكم هذا **﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾** تقدرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون. وقرىء: كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف.

قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾.

﴿قل فللّه الحجة البالغة﴾ يعني: فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فللّه الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم **﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾** منكم ومن مخالفيكم في الدين، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضًا بمشيئته فتوالوهم ولا تعادوهم وتوافقوهم ولا تخالفوهم؛ لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾.

﴿هلم﴾ يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين، وبنو تميم تؤنث وتجمع، والمعنى: هاتوا شهداءكم وقربوهم.

فإن قُلْتَ: كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أنّ الله حرج ما زعموه محرمًا ثم أمره بأن لا يشهد معهم؟ **قُلْتُ:** أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء، لتساوي أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به، وقوله: **﴿فلا تشهد معهم﴾** يعني: فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم؛ لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحدًا منهم **﴿ولا يتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾** من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع لهوى لا غير؛ لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلاّ مصدقًا بالآيات موحدًا لله تعالى.

فإن قُلْتَ[4]: هلا قيل قل هلم شهداء يشهدون أنّ الله

---

(1) قال أحمد: فائدته توطين النفس على الجواب، ومكافحتهم بالردّ، وإعداد الحجة قبل أوانها، كما قال سيقول السفهاء من الناس.

(2) سورة النحل، الآية: 35.

(3) قال أحمد رحمه الله: قد تقدّم أيضاً الكلام على هذه الآية، وأوضحنا أنّ الردّ عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأنّ إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار، وزعموا: أنهم يقيمون الحجة على الله ورسله بذلك، فردّ الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار، لأنفسهم وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال، فكذب الرسل، وأشرك بالله، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله، ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة، ثم بيّن الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك، وأنّ الحجة البالغة له، لا لهم بقوله ألا لله الحجة البالغة، ثم أوضح تعالى أن كل واقع بمشيئته، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم. وإنه لو شاء منهم الهداية، لاهتدوا أجمعوا بقوله، فلو شاء لهداكم أجمعين، والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة، وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار، لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة، وإذا تدبرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة: أنّ العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها، وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة، والمصنف يغالط في= الحقائق، فيسمى أهل السنة مجبرة، وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة؛ لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة، لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة، وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا إلى قوله قل: فلله الحجة البالغة﴾ وتتمة الآية، ردّ صراح على طائفة الاعتزال القائلين، بأنّ الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين، فلم تقع من أكثرهم ووجه الردّ أن لو إذا دخلت على فعل مثبت نفته، فيقتضى ذلك أنّ الله تعالى لما قال، فلو شاء لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم، ولو شاءها لوقعت فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم، فإذا ثبت اشتمال الآية، على رد عقيدة الطائفتين المنكورتين المجبرة في أوّلها، والمعتزلة في آخرها، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها، فإنّ أوّلها كما بينا يثبت للعبد اختياراً، وقدرة على وجه يقطع حجته، وعذره في المخالفة والعصيان، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله أيضاً، وقدرته في أفعال عباده فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز يثبتون ما أثبت، وينفون ما نفى، مؤيدون بالعقل والنقل، والله الموفق.

(4) قال أحمد رحمه الله: ووجه مناقضته له أنه لو قيل على خلاف المنزل، وهو قوله هلم بشهداء يشهدون، يفهم أن الطالب للشهداء=

حرم هذا، وأي فرق بينه وبين المنزل؟ **قُلْتُ:** المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم، وكان المشهود لهم يقلدونهم ويثقون بهم ويعتضدون بشهادتهم، ليهدم ما يقومون به فيحق الحق ويبطل الباطل، فأضيفت الشهداء لذلك، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم، والدليل عليه قوله تعالى: **﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾** ولو قيل: هلم شهداء يشهدون لكان معناه: هاتوا اناسًا بتحريم ذلك، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق، وذلك ليس بالغرض، ويناقضه قوله تعالى: **﴿وإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾**.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾.

تعال من الخاص الذي صار عامًا وأصله أن يقوله: من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم و **﴿ما حرّم﴾** منصوب بفعل التلاوة أي: أتل الذي حرمه ربكم، أو يحرم بمعنى: أقل أي شيء حرّم ربكم؛ لأنّ التلاوة من القول وأن في **﴿ألا تشركوا﴾** مفسرة ولا للنهي.

فإن قُلْتَ: هلا قلت هي التي تنصب الفعل وجعلت أن لا تشركوا بدلاً من ما حرم؟ **قُلْتُ:** وجب أن يكون لا تشركوا ولا تقربوا ولا تقتلوا ولا تتبعوا السبل نواهي لانعطاف الأوامر عليها وهي قوله: **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾** لأنّ التقدير وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، وأوفوا، وإذا قلتم فاعدلوا، وبعهد الله أوفوا.

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله: **﴿وأنّ هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه﴾** فيمن قرأ بالفتح، وإنما يستقيم عطفه على أن لا تشركوا إذا جعلت أن هي الناصبة للفعل حتى يكون المعنى أتل عليكم نفي الإشراك والتوحيد، وأتل عليكم أنّ هذا صراطي مستقيمًا؟ **قُلْتُ:** أجعل قوله: **﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا﴾** علة للاتباع بتقدير اللام كقوله تعالى: **﴿وأنّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا﴾**[1] بمعنى: ولأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه، والدليل عليه القراءة بالكسر كأنه قيل: واتبعوه صراطي، لأنه مستقيم أو واتبعوا صراطي إنه مستقيم.

فإن قُلْتَ: إذا جعلت أنّ مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بما حرم ربكم، وجب أن يكون ما بعده منهيًا عنه محرمًا كله كالشرك وما بعده مما دخل عليه حرف النهي، فما تصنع بالأوامر؟ **قُلْتُ:** لما وردت هذه الأوامر مع النواهي، وتقدمهنّ جميعًا فعل التحريم، واشتركن في الدخول تحت حكمه، علم أن التحريم راجع إلى أضدادها وهي: الإساءة إلى الوالدين وبخس الكيل والميزان وترك العدل في القول ونكث عهد الله **﴿من إملاق﴾** من أجل فقر ومن خشيته كقوله تعالى: **﴿خشية إملاق﴾**[2] **﴿ما ظهر منها وما بطن﴾** مثل قوله: **﴿ظاهر الإثم وباطنه﴾**[3] **﴿إلا بالحق﴾** كالقصاص والقتل على الردّة والرجم.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾.

﴿إلا بالتي هي أحسن﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بمال اليتيم وهي حفظه وتثميره، والمعنى احفظوه عليه حتى يبلغ أشدّه فادفعوه إليه **﴿بالقسط﴾** بالسوية والعدل **﴿لا نكلف نفسًا إلا وسعها﴾** إلا ما يسعها ولا تعجز عنه وإنما أتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان، ذلك لأنّ مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع وأن ما وراءه معفوّ عنه **﴿ولو كان ذا قربى﴾** ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها من أهل قرابة القائل فما ينبغي أن يزيد في القول أن ينقص كقوله: **﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين﴾**[4]. وقرئ: وأنّ هذا صراطي مستقيمًا بتخفيف أن، وأصله وأنه هذا صراطي على أن الهاء ضمير الشأن والحديث، وقرأ الأعمش، وهذا صراطي، وفي مصحف عبد الله: وهذا صراط ربكم، وفي مصحف أبيّ: وهذ صراط ربك **﴿ولا تتبعوا السبل﴾** الطرق المختلفة في الدين من اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر البدع والضلالات **﴿فتفرق بكم﴾** فتفرقكم أيادي سبا **﴿عن سبيله﴾** عن صراط الله المستقيم وهو: دين الإسلام وقرئ: فتفرق بإدغام التاء، وروى أبو وائل، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: أنه خط خطًا، ثم قال: «هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطًا، ثم قال: هذ سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا هذ

= ليس على تحقيق من أن ثم شهداء كما يقول الحاكم للمدعي، هات بينة تشهد لذلك، فهو لا يتحقق أن للمدعي بينة ثم يكون قوله، فإن شهدوا تحقيقاً؛ لأن ثم شهداء، فالجمع بينهما متناقض، كما ترى، والله الموفق.

(1) سورة الجن، الآية: 18.

(2) سورة الإسراء، الآية: 31.

(3) سورة الأنعام، الآية: 120.

(4) سورة النساء، الآية: 135.

الآية ﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب، وقيل: إنهن أم الكتاب، من عمل بهنّ دخل الجنة، ومن تركهنّ دخل النار، وعن كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده، أنّ هذه الآيات لأوّل شيء في التوراة.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾؟ **قُلْتُ:** على ﴿وصاكم به﴾.

فإن قُلْتَ: كيف صحّ عطفه عليه بثم والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ **قُلْتُ:** هذه التوصية قديمة لم تزل توصاها كل أمّة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، فكأنه قيل: نلكم وصاكم به يا بني آدم قديمًا وحديثًا.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾.

﴿ثم﴾ أعظم من ذلك أنا ﴿آتينا موسى الكتاب﴾ وأنزلنا هذا الكتاب المبارك، وقيل: هو معطوف على ما تقدّم قبل شطر السورة من قوله تعالى: ﴿وهبنا له إسحٰق ويعقوب﴾[1] ﴿تمامًا على الذي أحسن﴾ تمامًا للكرامة والنعمة على الذي أحسن على من كان محسنًا صالحًا، يريد: جنس المحسنين وتدل عليه قراءة عبد الله: على الذين أحسنوا، أو أراد به موسى عليه السلام، أي: تتمة للكرامة على العبد الذي أحسن الطاعة في التبليغ وفي كل ما أمر به، أو تمامًا على الذي أحسن موسى من العلم والشرائع، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته أي: زيادة على علمه على وجه التتميم، وقرأ يحيى بن يعمر على الذي أحسن بالرفع أي: على الذي هو أحسن بحذف المبتدأ كقراءة من قرأ ﴿مثلاً ما بعوضة﴾[2] بالرفع أي: على الدين الذي هو أحسن دين وأرضاه أو آتينا موسى الكتاب تمامًا أي: تامًا كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب أي: على الوجه والطريق الذي هو أحسن، وهو معنى قول الكلبي: اتمّ له الكتاب على أحسنه.

أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾.

﴿أن تقولوا﴾ كراهة أن تقولوا ﴿على طائفتين﴾ يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل ﴿وإن كنا﴾ هي أن المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والأصل وإنه كنا عن دراستهم غافلين على أنّ الهاء ضمير الشأن ﴿عن دراستهم﴾ عن قراءتهم أي: لم نعرف مثل دراستهم.

أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾.

﴿لكنا أهدى منهم﴾ لحدّة أذهاننا وثقابة أفهامنا وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسجاعها وأمثالها على أنا أميون. وقرئ*: أن يقولوا أو يقولوا بالياء ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ تبكيت لهم وهو على قراءة من قرأ: يقولوا على لفظ الغيبة أحسن لما فيه من الالتفات، والمعنى إن صدّقكم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله﴾ بعدما عرف صحتها وصدقها أو تمكن من معرفة ذلك ﴿وصدف عنها﴾ الناس فضلّ وأضلّ ﴿سنجزي الذين يصدقون عن آياتنا سوء العذاب﴾ كقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب﴾[3] ﴿الملائكة﴾ ملائكة الموت أو العذاب.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾.

﴿أو يأتي ربك﴾ أو يأتي كل آيات ربك بدليل قوله ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ يريد آيات القيامة والهلاك الكلي، وبعض الآيات أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها وغير ذلك، وعن البراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما تتذاكرون؟ فقلنا: نتذاكر الساعة، قال: إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفًا بالمغرب، وخسفًا بالمشرق، وخسفًا بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، ونارًا تخرج من عدن»[4] ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾ صفة لقوله: ﴿نفسًا﴾ وقوله: ﴿أو كسبت في إيمانها خيرًا﴾ عطف على ﴿آمنت﴾ والمعنى: أنّ أشراط الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة ذهب أوان التكليف عندها فلم ينفع الإيمان حينئذ نفسًا غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها خيرًا، فلم يفرق[5] كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت في غير وقت

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 84.

(2) سورة البقرة، الآية: 26.

(3) سورة النحل، الآية: 88.

(4) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة (الحديث رقم: 7214).

(5) قال أحمد رحمه الله: هو يروم الاستدلال عل صحة عقيدته، في أنّ الكافر والعاصي سواء في الخلود بهذه الآية، إذ سوّى بينهما في =

الإيمان وبين النفس التي آمنت في وقته ولم تكسب خيرًا ليعلم أنّ قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[1] جمع بين قرينتين لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد وإلا فالشقوة والهلاك ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ وعيد. وقرئ*: أن يأتيهم الملائكة بالياء والتاء. وقرأ ابن سيرين: لا تنفع بالتاء، لكون الإيمان مضافًا إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه كقولك: ذهبت بعض أصابعه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾.

﴿فرّقوا دينهم﴾ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى، وفي الحديث: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية، وافترقت النصارى ثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفترق أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة[2]، وقيل: فرّقوا دينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرئ*: فارقوا دينهم، أي: تركوه ﴿وكانوا شيعًا﴾ فرقًا كل فرقة تشيع إمامًا لها ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: من السؤال عنهم وعن تفرّقهم، وقيل: من عقابهم، وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾.

﴿عشر أمثالها﴾ على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف تقديره: عشر حسنات أمثالها، وقرئ*: عشر أمثالها برفعهما جميعًا على الوصف، وهذا أقل ما وعد من الأضعاف، وقد وعد بالواحد سبعمائة، ووعد ثوابًا بغير حساب، ومضاعفة الحسنات فضل، ومكافأة السيئات عدل ﴿وهم لا يظلمون﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم.

قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾.

﴿دينًا﴾ نصب على البدل من محل إلى صراط؛ لأنّ معناه: هداني صراطًا بدليل قوله: ﴿ويهديكم صراطًا مستقيمًا﴾[3] والقيم فيعل من قام كسيد من ساد وهو أبلغ من القائم، وقرئ*: قيمًا، والقيم مصدر بمعنى: القيام وصف به ﴿ملة إبراهيم﴾ عطف بيان و﴿حنيفًا﴾ حال من إبراهيم.

قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾.

﴿قل إنّ صلاتي ونسكي﴾ وعبادتي وتقرّبي كله، وقيل: وذبحي، وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾[4] وقيل: صلاتي وحجي من مناسك الحج ﴿ومحياي ومماتي﴾ وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لله رب العالمين﴾ خالصة لوجهه ﴿وبذلك﴾ من الإخلاص ﴿أمرت وأنا أوّل المسلمين﴾؛ لأن إسلام كل نبي متقدّم لإسلام أمّته.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾.

﴿قل أغير الله أبغي ربًا﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم، والهمزة للإنكار أي: منكر أن أبغي ربًا غيره ﴿وهو ربّ كل شيء﴾ فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من له الربوبية غيره، كما قال: ﴿قل أفغير الله تأمروني أعبد﴾[5] ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ جواب عن قولهم: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾[6].

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾.

﴿جعلكم خلائف الأرض﴾؛ لأن محمدًا ﷺ خاتم

= عدم الانتفاع بما يستدركانه بعد ظهور الآيات، ولا يتم له ذلك، فإنّ هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف، وأصل الكلام يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد، إلا أنه لف الكلامين، فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً، وإعجازاً أراد أن يثبت أنّ ذلك هو الأصل، فهو غير مخالف لقواعد السنة، فإنا نقول لا ينفع بعد ظهور الآيات اكتساب الخير، وإن نفع الإيمان المتقدّم في السلامة من الخلود، فهذا بان يدل على رد الاعتزال أجدر من أن يدل له، والله الموفق.

(1) وردت الآية في خمسين موضعًا في القرآن، منها: سورة البقرة، الآية: 25.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: شرح السنة (الحديث رقم: 4596)، والترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في افتراق هذه الأمة (الحديث رقم: 2640)، والحاكم في المستدرك 1/ 6 و1/ 128 وابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: بدء الخلق (الحديث رقم: 6247) وأخرجه أبو داود عن معاوية (الحديث رقم 4597).

(3) سورة الفتح، الآية: 20.

(4) سورة الكوثر، الآية: 2.

(5) سورة الزمر، الآية: 64.

(6) سورة العنكبوت، الآية: 12.

النبيين فخلفت أمّته سائر الأمم، أو جعلهم يخلف بعضهم بعضًا، أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في الشرف والرزق ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ من نعمة المال والجاه، كيف تشكرون تلك النعمة، وكيف يصنع الشريف بالوضيع، والحرّ بالعبد، والغني بالفقير ﴿إن ربك سريع العقاب﴾ لمن كفر نعمته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن قام بشكرها، ووصف العقاب بالسرعة؛ لأن ما هو آت قريب.

عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد، فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يومًا وليلة»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأعراف مكية

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾.

﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هو كتاب و﴿أنزل إليك﴾ صفة له والمراد بالكتاب: السورة ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: شك منه كقوله: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾[2] وسمى الشك: حرجًا[3]؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله ولا تحرج من تبليغه[4]؛ لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قُلْتَ: بم تعلق قوله: ﴿لتنذر﴾؟ **قُلْتُ:** بأنزل أي: أنزل إليك لإنذارك به، أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه متكل على عصمته.

فإن قُلْتَ: فما محل ﴿ذكرى﴾؟ **قُلْتُ:** يحتمل الحركات الثلاث: النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتنذر به وتذكر تذكيرًا؛ لأنّ الذكرى اسم بمعنى: التذكير، والرفع عطفًا على كتاب أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تنذر أي: للإنذار وللذكر.

فإن قُلْتَ[5]: النهي في قوله: ﴿فلا يكن﴾ متوجه إلى الحرج فما وجهه؟ **قُلْتُ:** هو: من قولهم لا أرينك هُهنا.

ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾ من القرآن والسنة ﴿ولا تتبعوا من دونه﴾ من دون الله ﴿أولياء﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن آدم أمرت باتباع كتاب الله وسنّة محمد ﷺ، والله ما نزلت آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم نزلت وما معناها. وقرأ مالك بن دينار: ولا تبتغوا من الابتغاء ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا﴾[6] ويجوز أن يكون الضمير في من دونه لما أنزل علي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرئ*: تذكرون بحذف التاء ويتذكرون: بالياء، وقليلاً نصب بتذكرون أي: تذكرون تذكرًا قليلاً، وما مزيدة لتوكيد القلة.

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾.

﴿فجاءها﴾ فجاء أهلها ﴿بياتًا﴾ مصدر واقع موقع الحال بمعنى: بائتين، يقال: بات بياتًا حسنًا وبيتة حسنة، وقوله[7] ﴿هم قائلون﴾ حال معطوفة على بياتًا، كأنه قيل:

---

(1) الثعلبي في تفسيره؛ وأخرج أوله الطبراني في المعجم الصغير ص 104 (الحديث رقم: 212).

(2) سورة يونس، الآية: 94.

(3) قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى، فلا تكوننّ من الممترين، ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن العقد ربط الفكر بمعتقد، والاعتقاد افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود، وهو الانشراح، والتبلج، والثقة، وما أحسن تنبيهه بقوله، والاعتقاد افتعال منع يريد إذا كان العقد مبايناً للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى، ومنه الاعتماد، والاحتمال، ومن ثم ورد في الخير كسب، وفي نقيضه اكتسب؛ لأن النفوس في الشهوات والمخالفات، واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات، وقمع الأغراض، وعلى تلك جاء لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، وإن كان العلم من الأعلم المأخوذ من العلمة بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها، فالذي نكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

(4) قال أحمد: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك﴾ أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز، أو جاء معه ملك الآية.

(5) قال أحمد: يريد أن الحرج منهي في الآية ظاهراً، والمراد النهي عنه، والله أعلم.

(6) سورة آل عمران، الآية: 85.

(7) قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف، والأفصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري، وأمّا الزجاج، وغيره، فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية إما الواو، وإما الضمير، وأمّا قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها، واو الحال كراهية لاجتماعها، وهي واو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر وذلك أنّ واو الحال لا بدّ أن تمتاز عن واو العطف بمزية ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد، وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة، لاستقبح توسطها بين المتغايرين، وإن لم يكن قبيحاً، فالأفصح خلافه، فلما=